المهدي و المرابط و الشريف.
على عهد السعديين.*

غارثيا - أرينال مرسيديس
ترجمة عبد العزيز بل الفايدة[1]
مراجعة : محمد الغرايب[2]

كان القرن السادس عشر في بلاد المغرب قرن انقلابات وتحولات عميقة، فخلال هذه الفترة العصيبة بدأت تتمظهر القضايا المرتبطة " بالانتقال الى العالم الحديث"[3] إذ وافق زوال الدول التي أعقبت الموحدين، التطور الكبير الذي شهده ورع وتشبث العامة بالدين في ظل الطرق الطرقية، وهي ظاهرة عبر عنها المؤرخون الفرنسيون بأزمة الزوايا.

إن وصول الأتراك واحتلال البرتغال والاسبان للسواحل وصعود القبلية، كلها عوامل متراكمة ساهمت في التحولات والتوجهات الجديدة" إنها لحظة هامة، لحظة ميلاد المجتمعات الشمال- إفريقية".[4]

وشهد هذا القرن في المغرب تكون بنيات سياسية ودينية، فمع ظهور أسرة جديدة، أي أسرة الشرفاء السعديين، فإن شكل التوافق الذي سوف يتم بين السلطة المدنية والسلطة الدينية وبين المجتمع والدولة سوف يطبع البلاد لمدة زمنية طويلة.

وقد أدى استقرار القبائل العربية في الجنوب وعلى الساحل الأطلنتي في فترة ما بعد الموحدين، الى تحرك وانتقال الساكنة البربرية نحو السهول الوسطى، وهي حركة واسعة استمرت عدة قرون.[5] وكان التأثير المعمم والمؤجل لهذه الحركات السكانية هو استمرارية الصراعات الداخلية.

(*)-نشر هذا المقال في معهد الدراسات ببرنستون بالولايات المتحدة الذي كانت المؤلفة عضوة فيه سنة 1988-1989. وصدر في صيغته الأصلية كما يلي :
Garcia- Arénal Mercedes, Mahdi, Murabite,Sharif: L'avènement de la dynastie sa'dienne, in Studia islamica, LXXI, 1990,pp.73-114.

[1]- أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة.

[2] - أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة.

[3]- J.Berque , Ulémas , *Fondateurs , insurgés du Maghreb* , Paris , 1982 , p.13..

[4] - J.Berque , Quelques problèmes de l'Islam Maghrébin , *Archives de sociologie des Religions* , II , 1957 , p.9.

[5] - G.S.Colin , Origine arabe des grands mouvements de populations berbères dans le Moyen Atlas , *Hesperis* , 25 , 1938 , p.265-270 et M.Kably , *Société , pouvoir et Religion au Maroc à la fin du Moyen -age* , Paris , 1986 , p.289…et 241-243.

كان الحفاظ على السلطة المدنية والدينية صعبا لأنهما كانتا معرضتين باستمرار للمنافسة الدائمة، كما أن إمكانية انتقالهما متاحة أيضا.

وفي هذه الظروف، لم تكن السلطة الفعلية والمشروعية بيد السلطنة، ولم تكن هاته سوى إحدى المراكز المتصارعة من أجل السلطة.

فالشرفاء السعديون شكلوا زعامة محلية ضمن زعامات أخرى، كانت تتصارع فيما بينها باستعمال القوة والدبلوماسية والتحالفات مع مختلف المجموعات المجاورة.

لكن نجاحهم وامتداد سلطانهم على مجموع بلاد المغرب الأقصى يمثل بداية لعملهم الذي لم يحظ بما يستحقه من اهتمام، وقد ربط الدارسون ظهورهم بشكل خاص بما سلف ذكره من تدخل برتغالي وتعدد للطوائف.

ان الفكرة الرائجة في كتب التاريخ[1] "ready-made" ترى أن الاحتلال البرتغالي شكل إهانة للمغاربة ولدينهم. فالوطاسيون الذين حكموا فاس كانوا عاجزين عن المقاومة ولجأوا أحيانا إلى عقد الصلح مع العدو.

وهكذا التجأت العامة إلى هذه الزعامات المحلية، وخاصة الى أتباع الطريقة الجزولية الذين اختاروا بعض شرفاء سوس المغمورين لقيادة الجهاد.

إن هذا الشعور" الوطني" الذي أذكاه العامل الديني المتأجج، ربما فسر فوز السعديين"المعجزة" وتمكنهم بالتالي من الوصول إلى نوع من الحكم "الوطني" القائم على إيمان "وطني". وهذا هو الرأي الذي عبر عنه أندري جوليان وآخرون والذي نجده في كتابيه " تاريخ شمال إفريقيا" [2] "والمغرب في مواجهة الإمبرياليات"[3].

وقد اعتبرت الفترة السعدية بمثابة قدوة للحركات المعاصرة ضد الاستعمار الفرنسي، وبدا الشريف السعدي كصورة للأمير عبد القادر.

ويذهب الباحث أبو النصر بعيدا في التحليل حيث يرى في هذا التوفيق بين السلطة العلمانية والروحية "ملكية" جديدة بالمعنى الذي فهمه أوروبيو القرن السادس عشر أي ملكية قائمة على طبقة وسطى تسعى للحفاظ على سلطة مركزية قوية[4].

وتطرح قراءة النصوص القديمة التي تقدمها المصادر العربية أسئلة أكثر مما تجيب عنها، فقد تم تغيير الأحداث في هذه النصوص كما اتفق، ومعنى ذلك، أن الأمر

---

[1]- H.Terrasse , *Histoire du Maroc* , *Casablanca* , 1949,II , p.160 et suiv. , mais surtout A.Cour , *La Dynastie marocaine des Beni- wattas* , *Constantine* , 1920 , p.121.et du même , *L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc* , Paris , 1904 , passim , C'est la thèse principale du livre.

أنظر أيضا ، حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، البيضاء ، 1987.

[2] - CH.A.Julien , *Histoire de l'Afrique du Nord* , 2° éd.Paris , 1952, II , p.206.

[3] - Ch.A.Julien , *Le Maroc face aux impérialismes* , Paris , 1978 , p.21 et ss.

[4]- Abun-Nasr , *A history of The Maghrib* , 2° éd.Cambridge , 1975 , p.202-203.

يتطابق مع موضوع أو حكاية تتماشى وما تم اعتياده أو ما نعرفه عن سير الأحداث.

وهكذا يبدو جليا وجود نوع من التوازي القوي مع تاريخ المرابطين، فالشخصية الدينية الأساسية ليست هي شخصية محمد ابن عبد الرحمان السعدي ولكن شخصية ابن المبارك "المرابط" الذي أمر قبائل سوس بالانقياد له كما حصل بالنسبة للأب الروحي للحركة المرابطية، سيدي وگاگ، أستاذ ابن ياسين.

لم يكن محمد بن عبد الرحمان نبيا، شأن ابن ياسين (رغم أنه المهدي بالنسبة للكثيرين)، لكنه "القائم" كما كان الشأن بالنسبة ليحيى بن عمر وأخيه أبي بكر المرابطيين وهما اللذان عينا على رأس الجيش من قبل ابن ياسين.

أما الإبن الأكبر [1] لمحمد بن عبد الرحمان القائم، الذي سيصبح محمد الشيخ المهدي، أول السلاطين السعديين، فهو قبل كل شيء محمد الأمغار، قائد الجيش. وكما أن أبا بكر ترك ابن تاشفين – أصغر منه سنا- حاكما على مراكش وانتهى به الأمر إلى الاستقرار بسجلماسة وبالصحراء في الوقت الذي تابع فيه ابن تاشفين فتوحاته نحو الشمال، فالأمر نفسه ينطبق على "محمد" الشاب الذي عزل أخاه الأكبر أحمد الأعرج، ونفاه إلى سجلماسة واستمر في مسيرته لفتح مدينة فاس.

أدرك وطاسيو فاس رغبتهم في التشبه بالمرابطين كما ذهب إلى ذلك مارمول، وهو إخباري معاصر [2]، لكن في حالة السعديين يطابق نموذج "المرابط" و"الحسبة " Hisba" عند المرابطين نموذج "المهدي" عند الموحدين، الذي يتحد بدوره مع النموذج الفاطمي حيث تماثل صورة (المهدي القائم) صورة الشريف(إذ اعتبر ابن تومرت شريفا كذلك)، وهكذا لم يطرأ أي تغيير على الرواية المغربية الوسيطية [3].

يقتضي الأمر الحديث قليلا عن المصادر التي اعتمدناها في هذه الدراسة لما تطرحه من مشاكل، فالمصادر العربية المتعلقة بالسعديين متأخرة عن الفترة التي أشتغل عليها ولا تعير إلا اهتماما طفيفا للبدايات الأولى للدولة السعدية.

وأهم المصادر التي سأذكرها باستمرار، المؤرخ المجهول، وهو مصدر من القرن 17، كتب من قبل أحد المعادين للدولة، ثم نزهة الحادي للافراني الذي كان على العكس من المنافحين عن السعديين والذي توفي مع بداية القرن18، ثم الزياني المؤرخ

---

[1]- الإبن الأكبر هو أحمد الملقب بالأعرج (المترجم).

[2] - Marmol , traduction francaise , *L'Afrique de Marmol* , Paris , 1667, I , p.444., selon Marmol , c'est le prince al-Nasir qui insistait dans ce sens auprés du sultan Wattaside.

[3] -A.Mojuetan affirmait que les sa'adiens ont inauguré une révolution dans la tradition de l'état maghrébin médiéval puisque leur état était inspiré par un mouvement national des masses (produit de la réaction à l'impérialisme portugais) en rupture totale avec la tradition de politique ethnique et religieuse du moyen -age maghrébin.A.Mojuetan, Ibn Khaldun and his cycle of fatalism : a critique, *Studia Islamica* , LIII , 1981 , p100.

العلوي المتوفى في بداية القرن 19 [1].

إننا في هذه الحال نقوم بتاريخ استرجاعي، حيث تتوفر النماذج الجاهزة، ورغم سهولة التعرف عليها، فإنه من الصعب أن نحدد هل كتب تاريخ السعديين حسب نماذج معروفة، وعما إذا كان السعديون أنفسهم قد حاولوا تكييف صورتهم مع نماذج قديمة.

هناك أيضا مصادر ثانوية قريبة من الأحداث خاصة منها الجنابي المتوفى عام (999- 1590) [2]، وهو مؤرخ تونسي، ثم ابن عسكر وابن القاضي[3]، وهما مؤلفا سيرة، توفيا مع نهاية16، وسنكون مضطرين للاعتماد على علم البرسوبوغرافيا وعلى معطيات كرونولوجية قد نجدها في الأرشيفات القشتالية والبرتغالية[4].

ويعتبر كتاب "ليون الإفريقي"،" وصف إفريقيا"، مصدرا أساسيا، فقد جاب هذا الغرناطي الذي نفي إلى المغرب، أراضي سوس ودرعة بين 1513- 1515 صحبة أحمد الأعرج، الابن الأكبر لمؤسس الأسرة.

إن مقارنة نصه مع نص الإسباني مارمول – أسير محمد الشيخ- الذي قام بنفس الرحلة مع السلطان السعدي أربعين سنة فيما بعد له أكثر من دلالة. وكيفما كان الحال، فان الصورة والحوافز الدينية هي التي تتكرر باستمرار في المصادر وفي البيبليوغرافيا المعتادة.

وعادة ما تستعمل مفاهيم المرابط والشريف والجهاد إما لتعريف الحركة السعدية أو لتفسير نجاحها. إن السؤال الذي سأطرحه عند بداية هذا العمل هو كالتالي: لماذا تفترض هذه المقومات وصول هذه الأسرة للسلطة وليس غيرها من شرفاء الزوايا القائمين بجهاد النصارى المحتلين للمراكز الساحلية مثل شرفاء جبل العلم؟.

ومن جهة أخرى يعلم كل من استأنس بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية خلال العصر الوسيط المتأخر، أن الملكية القشتالية تعلل ،بتنظيمها السياسي- العسكري، سبب وجودها ومصدر سلطتها وشرعيتها من أجل مواجهة المسلمين[5].

يقيم المتنافسون الذين يتحدون سلطة الدولة، حقهم بشكل جدي على الادعاء نفسه، أي ادعاء جهاد غرناطة أكثر مما يقوم به الحاكمون.

يتعلق الأمر بدافع " أيديولوجي" إلا أنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار من جهة حديث المصادر العربية عن الجهاد، ومن جهة أخرى الحديث عن الحرب المقدسة

---

[1]- E.Levi- Provençal, *Les historiens des chorfas* , Paris , 1922 , p.112-131, 145.

[2] - E.Fagnan , *Extraits inédits relatifs au Maghreb* , Alger , 1924 , p.285.

توفي ابن عسكر في معركةوادي المخازن (1578) في بداية الربع الأخير من القرن 16. (المترجم).

[3] - Lévi- Provençal, *Op.cit*, p.231, 247.

[4]- منشورة في سلسلة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب .(S.I.H.M.)

[5]- A.Mac Kay , *Spain in the Middle Ages.From frontier to Empire* , *1000-1500* , Londres , 1977 , p.59.

التي هي أيضا تبرير إيديولوجي أساسي يظهر خاصة خلال هذه الفترة في المصادر البرتغالية والقشتالية والتي تتحدث عن احتلال شمال إفريقيا [1].

لكن لم نتساءل إلى أي حد تعتبر هذه المفاهيم مواطن بلاغية مشتركة في كل طائفة بعينها حيث تسود في الحقيقة مصالح متضاربة لا تعدو أن تكون فيها هذه المفاهيم مجرد مواضيع معتادة،"Topoi ".

إن نقطة انطلاقي هو التضارب الخفي الذي يوجد في المصالح المادية بين المجموعات أثناء الصراعات المسلحة بينهما، لتأتي الإيديولوجية فيما بعد وتلعب على الأقل دورا ثانويا من الناحية الشكلية.

وليحصل الزعماء على سند العامة، وحتى بين أولئك الذين لا يهمهم الأمر بشكل مباشر، أو يهمهم صراع المصالح، فإنهم يستندون إلى إيديولوجية تحمل في طياتها التلاحم والمشروعية.

ففي المجتمع الذي يهيمن فيه الدين على الأيديولوجية، تتخذ الحروب والثورات -بمعزل عن الأسباب- بعدا دينيا، إذ يتم التعبير عن غاياتها وتبريراتها، بمصطلحات دينية، لذلك لا ينجح الزعيم الديني أوالروحي إلا إذا واجه هذه الصراعات ذات الخلفية المادية واستعملها.

إنني سأحاول في هذه الدراسة تحليل الصورة والأيديولوجية الدينية للسعديين الأوائل وجذورهما في الحركات الدينية المعاصرة وكذلك الصراعات المادية التي كانت قاعدة لظهورهم.

لقد ظل استمرار المهدوية واضحا في سوس منذ ما بعد الفترة الموحدية[2] : فقد حدثت نبوءات وخرافات باسم المهدي وقامت ثورات وتمردات ،وتسمي المصادر العربية- المغربية المهدي " بالفاطمي".

فابن خلدون نفسه في حديثه عن هذه المنطقة حوالي (756- 1355)، يذكر *رباط* ماسة " **وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول... فتقوى عندهم الأوهام في ظهوره هناك** "[3].

ورغم أن ابن خلدون يذكر من جهة أخرى بتفصيل المعتقدات المتعلقة

---

[1] - M.Garcia- Arénal , Spanish literature on North Africa in the XVIth century , *The Maghreb Review* , 8 , 1983, P.53-59.

[2]- M.Kably, société, pouvoir…, op.cit, p.127.

انظر ، محمد حجي ، الحركة الفكرية في المغرب على عهد السعديين، الرباط، 1976، 1، ص.269-279 حول المهديين المتأخرين.

- A.Hammoudi , Aspects de la mobilisation populaire à la campagne vus à travers la biographie d'un Mahdi mort en 1919 , in E.Gellner et J.C.Vatin , *Islam et politique au Maghreb* , paris , 1981 , p.47-55.

[3]- ابن خلدون، المقدمة، ص.. 583-584.

بالمهدي الدجال وأشراط الساعة [1]، فانه في هذه المناسبة كان جد وجيز ولم يشر إلى كل المعتقدات التبشيرية ذات العلاقة برباط ماسة[2].

وفي تذكرة القرطبي (المتوفى عام 617- 1277) والتي كتبت من قبل أند لسي أيام خضوع بلاد الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية للإمارة النصرية في غرناطة، نجد أن النبي محمد تنبأ بغزو إسبانيا بعد أن فقدها المسلمون وسيكون قائد الفتوحات "مهدي" من المغرب الأقصى وبالضبط من ماسة[3].

وبعد ثلاثة قرون، كتب ليون الإفريقي ما يلي: " **ويوجد في خارج ماسة مسجد على شاطئ البحر يقدسه الناس كثيرا ويذكر عدد من المؤرخين أن المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا كما أخبر بذلك النبي محمد (عليه السلام) سيكون خروجه من هذا المسجد"**[4]. وسنعود للحديث عن علاقات السعديين الأوائل بماسة والدوافع التي كانت وراء فتحهم للأندلس[5].

ويمكن تحليل شخصية الجزولي من إظهار كون الانتظارات التبشيرية في سوس كانت خفية وجاهزة للبروز إلى الواجهة.

ويعتبر أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي أهم متصوفة مغرب القرنين 16 و 17م. فهو من أتباع الطريقة الشاذلية ومؤسس زاوية وطريقة خاصة (كانت تضم 12000مريدا عند وفاة مؤسسها سنة870-1465) وقدارتبطت حركته بظهور السعديين.

ولن نتوقف هنا عند شخصية الجزولي أو عند عقيدته[6]، بل سنقتصر على التذكير بأن حركته ظهرت في سوس التي كانت موطن العديد من الزوايا التي تنشد طريقته كما سنثير الانتباه إلى ما قام به من تنبؤات.

ينتمي محمد بن سليمان وكما يدل على ذلك نسبه، إلى قبيلة جزولة البربرية، لكنه اعتبر دائما من الشرفاء. فالنصوص المناقبية تحمل بعضا من تصريحاته في

---

[1]- ابن خلدون ، المقدمة ، ص..555.

[2]- R.Montagne, Une tribu berbère du sud marocain : Massa, *Hesperis*, IV , 1924 , p.357-403. et « coutumes et légendes de la côte berbère du Maroc , *Hesperis* , IV , 1924 , p.101-116 ; R.Basset , *Relation de sidi Brahim de Massat* , Paris , 1883.

[3] - Apud Mahdi, D.B.MacDonald , *E.I.*III , p.114.

4 - الحسن الوزان ، وصف إفريقيا، الجزء الأول ، ترجمة محمد حجي والأخضر محمد ، الرباط ، 1980، ص.90 .

5- تذكر العديد من الوثائق القشتالية الدعاية التي كان يقوم بها الشريف محمد الشيخ من أجل غزو المراكز الساحلية أو المرور إلى إسبانيا وقد صرح علنا بانه سيغزو قشتالة (المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، المجموعة الأسبانية، 1،ص.192و 234).

6- أنظر خاصة، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، تحقيق وتعليق عبد الحي العمراوي وعبد الكريم مراد،ا لطبعة الأولى ، 1989،

Trimingham, *The sufi orders in Islam*, Oxford, 1971, p.84-86. J.

الموضوع:« **ليس العزيز من تعزز بالمال والأولاد وإنما العزيز من تعزز بالله وصفته، ليس العزيز من تعزز بالقبيلة وحب الجاه وإنما العزيز من تعزز بالشرف والنسب، وأنا شريف في النسب، جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقرب إليه من كل ما خلق الله، وعنايتي في الأزل مصبوغة بالذهب والفضة، فعليك باتباعنا"**[1] !

هذا خطاب ذو مرجعيات مهدوية. فقد تنبأ الرسول من بين ما تنبأ به، حسب ما يروى، أن المهدي سيكون من سلالته. وقد أورد صحيح مسلم ذلك في روايته للحديث التالي: " **يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده"**[2] .

لكن يبدو أن الجزولي أكثر وضوحا فهو يقول " **معشر المسلمين أما علمتم أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قريب مني وحكمه في يدي ؟ فمن تبعني فهو متبع له، ومن لم يتبعني فليس بمتبع له. سمعته صلى الله عليه وسلم يقول " أنت المهدي، من أراد أن يسعد فليأت إليك. معشر المسلمين كونوا من أمة المصطفى "ص" ولا تكونوا من أعدائه بالتكذيب والنكران والغش والخيانة، معشر المسلمين خلق الله لكم من يهديكم في آخر الزمان فاحمدوه "**[3].

وكما في كل نبوءة من هذا النوع، فإن الخشوع يختلط بالدعوة للجهاد: «**ودولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله القاتلين أعداء الله"**[4].

لكن من هم أعداء الله ؟ إنهم" **كل من لم يتبعني"**. كما أنه لا يجب بالضرورة ربط الجهاد بالنصارى.

إن الشرف والمهدوية والجهاد من صفات المرابط الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، وهي كذلك القواعد التي قامت عليها النبوءة الجزولية، ويسود الزاوية نوع من الخشوع المطلق الذي سيعم المساكن المجاورة فيما بعد[5]. ويتميز هذا المناخ بوجود علامة أخرى كتعبير عن الاستياء والأمل والخوف[6]، وتتمثل في كثرة النبوءات التي لا تقتصر فقط على ظهور المهدي بل تتعداها إلى القول بفتح الأندلس من قبل

---

[1]- ممتع.....، ص. 4

[2] Sur ce Khalifa, Voir J.Wensinck , *Handbook of Early Muhammadan Tradition* , Leiden , 1921 , p.100b.

[3]- ممتع الاسماع ، م.س، ص.5.

[4]- ن.م. ص.5

[5] - يناقش بتير فون سيفرس ظواهر مشابهة ، انظر،

« The Realm of Justice.Apocalyptic revolts in Algeria (1849-1879) ,*Humaniora Islamica* , I , 1973 , p.47-60

[6] - Bouchareb.A , Les conséquences socio-culturelles de la conquète ibérique du littoral marocain , *Actas del cooquio relaciones de La Peninsula Iberica con el Magreb* , Madrid , 1988 , p.487-538.

المسلمين[1] وغزو المغرب من قبل النصارى [2] **الذي هو غضب من الله.**[3]

ويحكى أنه قبل وفاة الجزولي ببضع ساعات، قال له مريدوه « **أناس يذكرون فيك أنك الفاطمي فخرج وقال: ما يدرون إلا من يقطع رقابهم، والله يسلط عليهم من يقطع رقابهم**". وهناك من رأى كلماته هاته ضربا من النبوءة." **قيل فكان ظهور دعائه في عمروالمغيطي**[4]. وحاول بعض المعاصرين أن ينسبوا هذه النبوءة إلى السياف، أحد مريدي الجزولي وربما حفيده وهو رأس الثورة التي سيعرفها جزء كبير من سوس خلال أكثر من عشرين سنة.

وكان يسمى عمرو بن سليمان الشياظمي المغيطي السياف المريدي[5] إذ كان من تلامذة الجزولي الأوفياء والذي مدحه مرات عديدة. " **ثم بعد موته احتمله عمر السياف في تابوت، قبل أن يدفن في قبر له بتانكرت، ونقله من وعر الجبل الذي فيه تانكرت الى السهل"**[6]. وفي هذا الوقت بالذات ثار عمر ضد السلطات بحجة الانتقام للشيخ من أولئك الذين كانوا سببا في وفاته (إذ يقال إن الجزولي توفي مسموما من قبل أشخاص قريبين من جهاز الحكم في فاس). وطلب العون من أتباع الجزولي وحارب المناهضين والأتباع الذين ترددوا في قبول مذهبه:" **ولم يزل بهم حتى قاتلهم، ثم صار يدعو الناس إلى إقامة الصلاة ويقاتلهم عليها، فنصره الله عليهم..**".وأصبحت سلطته وتأثيره كبيرين، وتمكن من إخضاع سوس بالقوة، ولم تعد تحت طاعة ملوك فاس. وزعم أنه حقق هذه الانتصارات ببركة تابوت الجزولي الذي كان يصطحبه في كل حملاته" **وصار يقاتل به فكان ينصر به حيثما توجه وإنه بقي على ذلك عشرين سنة إلى أن توفي.» فكان عنده بمنزل يقال له الرباط بروضة هناك من غير دفن، وكان إذا جن الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسونه من السرق، وأوقد عليه كل ليلة رداء ومد زيت، بمدهم ليقوى الضوء وينتشر ويبلغ من كل الجهات الى مسافة بعيدة فيكشف الطرق ومن يأتي عليها مخافة من يذهب بالشيخ بالليل**". وقد اغتيل السياف من قبل زوجاته سنة 890- 1485" **ثم اتفقت زوجتاه على قتله امتعاضا وغيرة على الإسلام، ولما كان عليه من الفساد في الأرض فرصدتا غفلته وغرته**

---

[1] - Voir par ex : S.I.H.M , Angleterre , I , p.68.

[2] - نبوءات حول احتلال المغرب من قبل النصارى ، أنظر:
S.I.H.M , Portugal , I , p.142 ; France , II , p.166 et note1.

[3] - الناصري ، الاستقصاء .

[4]- محمد المهدي الفاسي ، ممتع الاسماع..،ص.12.

6 - حول السياف انظر، ممتع..، ن.م, محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن، فاس (1324 ه) ص.207. أحمد زروق، كناش، تحقيق م.فهمي خشيم، طرابلس، دون تاريخ، ص.26-27. الحسن الوزان، وصف افريقيا....،م.س، 1، ص.85.

7- ممتع...، ص، 14 .

فقتلتاه وهو نائم"[1].

و يبدو أن أتباعه كانوا ما يزالون متحكمين في بعض القصبات أو الحصون لما زار ليون الإفريقي البلاد في العشرية الثانية من القرن 16.

وقد أحاطه أحمد زروق[2] بعناية خاصة[3]، إذ كان االسياف ذا ملكة في النبوءة وقدرة على الوصول إلى الحقائق الخفية، بحيث يمكنه البقاء في اتصال مباشر "بالخضر"[4] الذي يصدر له الأوامر الربانية: فهو بالتالي المهدي تقريبا لأن المهدي هو من يأخذ الله بيده بل أكثر من ذلك، فالخضر حسب ما يرويه المسلمون، يقوم مقام إلياس الذي يلعب دورا هاما في قيام الساعة.

يدعو السياف أتباعه " المريدين" على الرغم من أنه- حسب زروق- كان من الأليق أن يطلق عليهم اسم " الماردين"، الثوار، وكان يعتبر كل من رفضوا زعامته، مرتدين وبالتالي فقتالهم والجهاد فيهم أمر مشروع [5]، كما أن ممتلكاتهم تعتبر من الغنائم [6] **" ثم عاد يطلب المنكرين عليه وعلى أصحابه وشيخه ويسميهم جاحدين، ويسمي أصحابه المريدين بضم الميم، وما أحقهم بالفتح".**

تذكر العديد من الوثائق القشتالية الدعاية التي كان يقوم بها الشريف محمد الشيخ من أجل غزو المراكز الساحلية أو المرور الى إسبانيا. وقد صرح علنا بأنه سيغزو قشتالة (المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، المجموعة الاسبانية، 1، ص192و 234).

يمتلئ مؤلف زروق بالسباب والطعن في شيوخ الزوايا الذين يستغلون نفوذهم الروحي ليؤثروا على العامة ليبلغوا مآربهم ويصبحوا ظالمين وموالين للمستبدين وينحى نفس المؤلف بالقذف على كل من يتعاطى لعلوم السحر والخيمياء والتنبؤ

---

[1] - ممتع الاسماع، م.س ، ص.13- 14..

2- إن الشيخ أحمد زروق (المتوفى سنة 899- 1493) شخصية عرفت بمحاولاتها التوفيق بين الفقه والتصوف، أنظر:

- A.Khusaim , *Zarruq the sufi* , Tripoli , 1976

[3]- أنظر الهامش 34.

[4] - Sur al-khadir , voir Trimingham , Sufi orders , p.158-159 ; art. « al-Khadir » de A.J.Wensinck , *E.I‹2* , Zarruq sur al-Khadir dans , A.F.Khusaim , *Zarruq the sufi* , tripoli , 1976 , p.119.

[5]- جهاد = حرب مشروعة بدل حرب مقدسة، أنظر:

A.Turki , L'ideé de justice dans la pensée politique musulmane , *Studia.Islamica* , LXVIII , 1988 , p.23.

[6] - L.Kraemer , Apostates , Rebels and brigands , *Israel oriental studies* , X , 1980 , p.43-73

- ممتع الاسماع ، ن.م، ص.13.

ويدعي أنه الفاطمي أو المهدي المنتظر.[1]

إن دعوات المهديين أو المتنبئين لا تبطل البيعة المقدمة للحكام الشرعيين حسب زروق وإن الثورة والانفصال هي سيان للردة والخيانة.

لقد كان زروق معاصرا لعمر السياف، ولا شك أن عددا من هذه الشتائم التي تكال للشيخ لا تقال الا في حق كل شخص قريب من الثائر، ومن جهة أخرى عارض زروق القول بضرورة النسب الشريف ووجوبه لإضفاء المشروعية على الحكم أو الإمامة.

وكان زروق قد ساهم بفعالية في ثورة فاس سنة 869- 1465، التي أطاحت بعبد الحق، آخر سلاطين بني مرين[2].

وقد اهتم ليون عن قرب بهذا" الثائر والمبتدع". **"و كان في بداية أمره شيخا متصوفا ثم لما جمع حوله عددا كثيرا من المريدين وأطاعوه صار جبارا عنيدا"**[3].

ويصور ليون الإفريقي الطريقة التي اختير بها محمد بن عبد الرحمان"قبطانا" لحصارأكدير من قبل القبائل: **" واتخذوا قائدا لهم أحد الأعيان الأشراف من آل محمد(عليه السلام) فأقام الحصار أمام الحصن أياما عديدة مات خلالها عدد وافر من المحاربين الغرباء عن البلد، فتخلى هؤلاء عن القتال ورجعوا إلى ديارهم. وبقي البعض مع الشريف لمتابعة قتال المسيحيين، واكتفى سكان سوس بأن يدفعوا للشريف المبلغ اللازم لتجهيز خمسمائة فارس.فلما استلم الشريف أموالا باهظة لاستئجار هذا الجند، واكتسب الخبرة اللازمة للبلاد، أعلن الدعوة لنفسه واستقل بالحكم "**[4].

وحسب ليون الإفريقي دائما، فإن السياف قام ببناء حصن " **قليعة المريدين" فوق قمة جبل مرتفع على بعد ميل ونصف من مدينة "تسكدلت" وميل واحد عن الطريق الكبرى"**[5]. ويضيف بأن سكان تسكدلت كانوا دائما في حروب مستمرة مع الأعراب" **وسكان تسكدلت أغنياء يملكون عددا مهما من الخيل ولا يؤدون أية ضريبة للأعراب، بل يحاربونهم باستمراروويقتلون الكثير منهم. والحقيقة أن أهل البادية يحملون جميع حبوبهم الى هذه المدينة خوفا من أن يسلبهم إياها الأعراب"**[6].

---

[1]- Khusaim , Zarruq the sufi , p.200.

[2]- Garcia-Arenal , The Revolution of Fas in 869/ 1465 and the Death of Sultan Abd-al-Haqq al-Marini , *BSOAS* , XLI , 1978, p.43-66.

[3] - الوزان ، م.س، ص، 85.

[4]- الوزان ، ن.م ، ص، 94.

[5]- الوزان ، ن.م ، ص84-85..

[6] - ن.م.، ص، 82.

وكان السياف يملك أيضا مع أتباعه حصن " امجياجن" فوق وادي سفساوة. وفي النص المتعلق بهذه المدينة، يؤكد ليون بأنه لا يمكن حرث سوى منحدر الجبل " لأنه لا يمكن اجتياز السهل إما خوفا من الأعراب وإما من البرتغال" **لكنه ليس هنا غير حدور الجبل التي يمكن حرثها وزرعها للحصول على القوت الضروري، لأنه لا يمكن حتى المرور الى السهل خوفا من العرب تارة ومن البرتغاليين أخرى"[1].**

ويملك السياف كذلك"أفوغال"، وضريح الجزولي، وتصروت" في الضفة الأخرى من الوادي[2].

ويجب الأخذ بعين الاعتبار الوضعية الجغرافية والاستراتيجية لقواعد السياف مقارنة مع باقي قواعد المرابطين والزوايا التي سنتحدث عنها فيما بعد.

وبعد أيام قليلة من وفاة عمر السياف، ظهرت أولى الأخبار عن الشريف محمد بن عبد الرحمان، فحسب المصادر العربية، إن أسرته قدمت من ينبع النخل في الحجاز واستقر أجداده في بلاد المغرب مع بداية القرن 8/14.

« وأشار بذلك إلى ما يزعمه السعديون من أن أهل درعة كانوا لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات فقيل لهم لو أتيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى به أهل سجلماسة إلى بلادهم لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم ".فاستقروا إذن في حوض درعة، في تاكمادارت" **حيث استقر أوائلهم"[3].**

وعلى مدى عدة أجيال تبربر العديد منهم فأثار نسبهم – الغامض على مستوى العديد من النقط - بعض الشكوك عند وصولهم للحكم، وخاصة، خلال منتصف القرن 17، عندما ظهر الشرفاء العلويون على المسرح السياسي.

بدأ الحديث عن محمد بن عبد الرحمان خلال العشرية الأخيرة من القرن 15 كفقيه ورجل دين وعلم، غير أنه افتقر إلى الموسوعية دون شك لأنه " **كان فقيها يعلم الصبيان كتاب الله**"[4] و يتعاطى لعلوم التنجيم والسحر وللتنبؤ[5] ويظهر "كمرابط" يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر." **وكان حريصا أشد ما يكون الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أباح دماء اليهود وأموالهم"[6].**

---

[1] - ن.م ، ص.98.

[2] - Sur Tasrout (Tazrote en Marmol) et Afugal , voir H.de Castries , Les sept patrons de Marrakech , *Hesperis* , IV , 1924 , p.249.

[3] - الافراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، نشرة هوداس، 1888، ص.6 و 9.

[4]- Al-Zayani d'après R.Le Tourneau , La naissance du pouvoir sa'dien vue par l'historien Al-Zayyani , *Mélanges. L Massignon* , Damas , 1957 , p.76.

[5] - Jannabi dans , E.Fagnan , Extraits inédits relatifs au Maghreb , Alger , 1924 , p.339. ; Diego de Torres, *Relacion del origen y suceso de los arifes y el estado de los reinos de Marruecos , Fez y Tarudante , Sevilla .*

[6]- Jannabi , *op.cit* , p.340.

وتؤكد المصادر نفسها أنه كان يتنقل في القبائل ويشيع فيها ما يلي " **سيتأمر ولداي عليكم، ويحكمانكم ويجبيان ضرائبكم، ويقيمان شرع الله فيكم وسيعلو اسمهما في العالمين"**[1]. أو" **وعلى أيدينا صلاح الدنيا، يكون لولداي أحمد ومحمد حكم الأرض فيملآنها عدلا."**[2]

وكان الناس في البداية يتعجبون من الأمر بل يستهزؤون منه، لكنهم بدأوا يقبلون به، وخلال مدة لم تفصح عنها النصوص أدى محمد بن عبد الرحمان مناسك الحج، فحسب الجنابي، خلق له حماسه مشاكل سواء في تونس أو في مصر[3]. ويحكى نفس الأمر عن ابن تومرت الموحدي.

إن حاكمي هذين البلدين كانا يحترمانه لكنهما كانا يرغمانه على مغادرة بلادهما. وحسب المصادر، كان خلال هذه السنوات الأولى"مرابطا" [4] بمفهوم المرابطة عند ابن ياسين مؤسس الدولة المرابطية، الذي يقصد به أناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر طبقا للشريعة ويجندون فرقا للدفاع عن هذا الهدف إذا استدعى الأمر ذلك[5].

والى هذا الصنف ينتمي بعض الشيوخ الجزوليين المعاصرين أمثال محمد بن عبد الكريم المغيلي" **وكان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"** [6] وحسب علماء فاس " **إن هذا الرجل إنما مراده الظهور والملك"**[7].

لقد كان المغيلي، المطرود من فاس من قبل محمد الشيخ الوطاسي، من وراء التقتيل الذي تعرض له يهود توات سنة 1492/897، وكذلك من وراء الثورة التي فشلت ضد بني وطاس[8]، لكن السعدي فعل خيرا عندما وصل إلى الحكم بإرادة إلهية ووعد بأ ن يسوس الناس بالعدل.

وبعد عودته من الحج، شاع الخبر بأن رجلا" **صالحا بالمدينة المشرفة أشار له بما يكون منه ومن ولديه"** وفسر بعض الرؤى التي حكاها له الشريف. وتذكر أغلب المصادر تنبؤين اثنين أو علامتين تبينان بأن الأخوين سيكون لهما حكم بلدهما :

---

[1] - *Ibid.*
[2] - *Ibid.*
[3] - *Ibid.*
[4]- Ibid , Zayyani , apud Le Tourneau , *op.cit* , p.77.
[5] - M.Brett , Arabs and Berbers and Holy Men in southern Ifriqiya , *Cahiers de Tunisie* , XXIX , 1981 , p.550.
[6]- ابن عسكر ، الدوحة ، ص.، 130.
[7] - ن.م ، ص، 130.
[8] - A.Batran , A contribution to the biography of Shaikh Muhammad ibn' Abd al-Karim al- Maghili , *Journal of African History* , XIV , 3 , 1973 , p.381-384.; J.O.Hunwick , Al-Maghili and the Jews of Tuwat; the demise of a community , *Studia Islamica* , 41 , 1985 , p.155-183.

" ومن معنى تلك الرؤيا المذكورة، ما يحكى شائعا أن ولدي أبي عبد الله القايم وهما أحمد الأعرج وأخوه محمد المهدي كانا يقرءان القرءان بمكتب وهما صبيان صغيران فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصاح. فأول ذلك مؤدبهما بأنهما سيكون لهما شأن عظيم فكان كذلك ". "وكان رأى رؤيا وهي أن أسدين خرجا من إحليله فتبعهما الناس إلى أن دخلا صومعة فوقف هو ببابها فعبرت رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن عظيم وأنهما سيملكان المغرب"[1]. ويضيف صاحب النزهة " ثم رجع إلى المغرب وهو مضمر للدعوة ويقول في كل محفل إن ولديه سيملكان المغرب ويكون لهما شأن عظيم من غير تردد منه، ثقة بقول الرجل الصالح وتفسير رؤياه المذكورة، فما زال إلى أن قام في سنة خمسة عشر وتسعماية" 915/ 1510"[2].

ومنذ البداية والمصادر العربية تسمي محمد بن عبد الرحمان"بالمهدي"[3]. ولما بويع حمل لقب "القائم بأمر الله"وهو لقب ذو شحنة مهدوية[4]. إلا أن محمد بن عبد الرحمان لم يكتف بحملة دعائية لفائدة ابنيه، ولم ينتظر أن تتحقق النبوءات. ففي سنة 1506م. أرسل ابنيه للحج لتعظيم حظوتهما ومكانتهما العلمية[5]." ولما رجعا من الحرمين أشاعا بين الناس أنها ينذران أنفسهما للرحمن، فاعترف لهما البرابرة وغيرهم بالشرف، وكانا ينتقلان وهما يذكران اسم الله، خاشعة قلوبهما، لا يسعيان إلى مال ولا جاه، ولا يرغبان في العيش الا من الصدقات، فكان الناس يتقاطرون عليهما أينما حلا وارتحلا، للتبرك بطلعتهما ولتقبيل ملابسهما"[6].

ثم قام فيما بعد بتدعيم شهرتهما كمرابطين بتعليم جيد وبتوفير اتصالات مع مملكة فاس حيث أرسلهما سنة 1508. وتبقى معلوماتنا حول إقامتها بهذه المدينة غير واضحة وذات كرونولوجية غير مضبوطة، لكننا نعلم أنها تعلما في إحدى المدارس بل ولربما أن الابن الأكبر أحمد كان زميلا في الدراسة لليون الإفريقي،[7] وأن أحدهما شغل وظيفة دنيا في القضاء.

---

[1] D.de Torres , op.cit , p.41 ; *Chronique anonyme de la Dynastie Sa'dienne , apud , Fagnan , Extraits*.., p.361.

- الافراني ، النزهة...، م.س، ص.10.

2 - ن.م، ص.10.

[3] - Jannabi , *op.cit* , *p*.339.

[4]- ن.م .

[5]- Diego de Torres, *op.cit* , p.41.

مارمول، وصف افريقيا، الجزء الاول. ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، .وآخرون، مطبعة المعارف، ص.451.

،[6] - Diego de Torres, *op.cit* ;

[7]- ليون الافريقي ، ن.م، ص.8.-

أما محمد، أصغرهم، فقد كان حسب أغلب المصادر، يدرس أبناء السلطان أو على الأقل مثل أبيه" **معلم الصبيان**"[1]. لقد شاركا في الحملات ضد طنجة وأصيلا وبرزا فيها وذاع صيتهما وحظيا بمكانة لدى السلطان الوطاسي ثم عادا إلى سوس حوالي سنة 1512.

وإذا كانت المصادر لا تذكر هذه السنوات الأولى إلا باقتضاب، فان أغلبها يؤكد أن محمدا- على الخصوص- وهوالذي سيصبح سلطانا وسيحمل لقب " الشيخ المهدي"، كان رجل علم، ملما بالشريعة وحتى بالآداب.

ويذكر العديد من المؤلفين تعلقه بالمتنبي[2]." **فعكف السلطان المذكور على حفظ ديوان المتنبي، حتى علق بحفظه كله، ولم يعزب عنه بيت واحد**" وكما يشير الى ذلك الزياني، فإن " **محمد قام بدراسات ممتازة واشتغل بحزم مكناه من إدراك معارف جمة**"[3].

وهذا يفرض علينا أن نتوقف عند أولئك الذين تتلمذ عليهم سواء في سوس أو في فاس. فالمصادر تذكر:

- الحسن بن عثمان التملي المتوفى في سوس عام 1562/932[4]. تمتع بحظوة كبيرة في "بلاد جزولة"حيث كان يفتي في أمور الشرع والقانون. لقد كان تلميذ أحمد الونشريسي وابن غازي أحد كبار الأساتذة في" مدرسة فاس"[5] .

- عبدالله بن عمر المضغري المتوفى في تاگمادارت في درعة سنة 927/ 1520[6]. وهو تلميذ الونشريسي والقوري في فاس."**وكان الأخوان محمد الشيخ وأبو العباس الأعرج من تلامذته وبسببه كانت دعوتهما**"[7].

- أبو عبد الله محمد بن أحمد اليسيتني المتوفى في فاس سنة 1552/959. تولى خطة الفتيا بفاس، وهو تلميذ ابن غازي والونشريسي والزقاق[8].

---

[1]- S.I.H.M , Angleterre , I , p.247 " Escolero que mostrava mochachos" .

[2]- انظر مثلا ابن القاضي ، درة الحجال ، ابن عسكر ، الدوحة ، ص.88.، ممتع الأسماع، م.س، ص.30.

[3]- Al-Zayyani , *op.cit* , p.78.

[4]- ابن القاضي ، درة الحجال، 1، ص.240، المنجور، فهرس، تحقيق م.حجي ، الرباط ، 1976 ، ص.51.

[5]- J.Berque , Ville et université.Aperçu sur l'histoire de l'école de Fès, *Revue Historique du droit Français et étranger, 1949, p.85.*

[6]- *احمد بابا* ، نيل الابتهاج، منشور على ذيل ، ديباج ابن فرحون،القاهرة ، دون تاريخ ، ص.161.، ابن القاضي، الدرة، 3، ص.55و960.، الافراني، م.س، ص.12...

[7] - الافراني، م.س، ص.12.

[8] - sur al-yasitni , voir , Ben Cheneb , *Etudes sur les personnages mentionnés dans* ،*l'Idjāza du cheikh 'Abd el-qadir el-Fasy* , Paris , 1907 , p.77-78.et références.

ونعلم كذلك أن الأخوين كانا يترددان على زاوية أبي محمد عبد الكريم الفلاح (المتوفى بين سنتي 931-1524/940-1533) وهو شيخ وقطب الجزولية، ومن أصحاب عبد العزيز التباع الذي هو بدوره خليفة الجزولي[1].

ويمكن القول إن الأخوين أحمد ومحمد كانا مقربين من أكبر علماء سوس ودرعة، وبصفتهما" مرابطين" فقد تعلقا بالجزولية ووثقا روابطهما بهذه الطائفة الدينية.

ويبدو أن أحمد الأعرج قد تزوج من بنت سيدي بركات التدسي الذي سنتحدث عنه لاحقا. وإذا كانت صورتهما الأولى هي صورة المرابطين الجزوليين المتعلقين بالتقاليد المهدوية في سوس، فإنهما حرصا على تلقي تربية السلف التي تربطهما ب"سلسلة تعليمية" لجماعة العلماء في فاس ممثلي المشروعية والأرثدوكسية، ليصبحا أمناء على الفقه والعلم ومتفوقين سياسيا ودينيا وبالتالي تمكنا من الحصول على المؤهلات الدينية (الفقه والبركة) الضروريين لشهرتهما.

وبديهي أن محمد بن عبد الرحمان كان يطمح هو وابنيه للحكم قبل أن يستقر البرتغاليون في سوس أو على الأقل قبل أن يهددوه. ويذكر ابن عسكر في الدوحة أن محمد القائم أخبر الشيخ الجزولي محمد بن العنابي[2] برغبته في الحكم لكنه يشتكي من ضعف حاله." **قال: لقي جدي الشيخ أبا عبد الله العنابي فشكا إليه ضعف حاله وعدم القدرة على ما يعين به ولديه الملكين على ما يريد من ظهور دعوتهما** "وقد ساعده الشيخ بكرامة حسب نفس المصدر" **فقال له : أهل البيت أحق بالنصرة، ايتني بما عندك من حديد، فذهب جدي فأتاه بزبرة من حديد لم يجد غيرها، فقال له انتظرني حتى أرجع إليك فدخل إلى منزله ثم رجع بعد ساعة وتلك الزبرة في يده، فقال له خذ هذه ، فإذا هي ذهب خالص"**[3].

وتوفي العنابي سنة أو سنتين بعد استيلاء القشتاليين على غرناطة سنة 1492، وقد تمكن الفارس البرتغالي"جواو لوبيش دو سكيرا" من بناء حصن خشبي في أكدير سنة 1505، لكن الظرفية فرضت عليه بيعه للتاج البرتغالي الذي تكفل به منذ 1513[4]. وخلال هذه السنة كان الموقع البرتغالي ضعيفا على المستوى العسكري ويعيش على تجارة ضعيفة مع الأهالي[5].

ويجب الاعتقاد بأن الطموحات السعدية لم تكن سابقة ومنفصلة عن التهديد

ابن عسكر ، الدوحة، م.س ، ص.58-59.

[1] - ابن عسكر، الدوحة..، ص، 100

6 - ابن عسكر ، الدوحة ، ص.، 92.

[3] - ن.م ، ص،92..

[4]- R.Ricard, L'occupation portugaise d'Agadir (1505-1541), *Hesperis*, 1946, p.93-102.

[5] - Id , p.95.

البرتغالي فقط بل إن محمد القائم حصل كذلك على دعم من الزوايا الجزولية قبل أن يقترح من قبل الزعماء الدينيين كقائد للجهاد ضد هذا التهديد.

وحوالي سنة 1513، وحسب الجنابي، جمع السعديون حولهم مجموعة من الأتباع الذين يقولون عن مولاي أحمد، الإبن الأكبر لمحمد بن عبد الرحمان القائم **"هذا هو الفاطمي المنتظر الذي بشر به "صاحب الشريعة" ليظهر عند قيام الساعة"**[1].

وللأسف فان الكرونولوجيا المتعلقة بهذه الفترة غامضة جدا، فالافراني يؤكد [2] أن محمد بن عبد الرحمان طالب بالحكم سنة (915 -1500) حيث تبنى لقب القائم **"فما زال إلى أن قام سنة خمسة عشر وتسعماية"** وحسب الزياني فقد بويع سنة 916[3].

وفي شهر غشت 1511، وقعت أول حملة على سانتا كروز من قبل الشريف[4]، وحسب الافراني دائما [5] فقد اعترف بأحمد الأعرج سلطانا على سوس ووليا للعهد سنة 918 / 1512- 1513 **"وبويع بإشارة أبيه عام ثمانية عشر وتسعماية"**.

وتذكر رسالة مؤرخة بنونبر 1510 كتبها Ignatio Martins الى الملك إمانويل الأول البرتغالي- وهي أقدم وثيقة تشير إلى الشريف-[6]، أنه ليس الحاكم فقط بل تتحدث أيضا عن ابنه أحمد" سلطان سوس" الشيء الذي يفرض علينا تصحيح كرونولوجيا الافراني. ولنتتبعه في سرده للأحداث لأنه المؤرخ الرسمي للدولة [7]. فحسب الافراني[8]، إن سلطة بني وطاس كانت منعدمة في سوس، ولما أحس أهل المنطقة بتهديد البرتغال لهم ، توجهوا إلى الولي الصالح ابن المبارك الجزولي لعرض حالتهم السيئة عليه وقبلوا طاعته من أجل توحيد القبائل تحت قيادته لمحاربة العدو، لكن ابن المبارك، الزعيم الروحي رفض هذه السلطة وهذا الاقتراح" **فلما رأى أهل السوس ما دهمهم من تفاقم الأهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الولي الصالح أبي عبد الله بن مبارك فذكروا له ما هم فيه من انتشار جماعتهم وافتراق كلمتهم وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم وطلبوا منه أن تجتمع كلمتهم عليه ويعقدون له البيعة ويقوم بأمر الناس في إمضاء الحكم عليهم وجمعهم لقتال عدوهم فأبى من ذلك وامتنع منه كل الامتناع وقال لهم إن رجلا من الأشراف بتاگمادارت من**

---

[1]- Jannabi , op.cit , p.341.

[2] - الافراني، النزهة، ص.10.

[3]-Al –Zayyani , p.79

[4]- S.I.H.M , Portugal , I , LVIII , p.334.

[5] - الافراني، النزهة ، ص.18.

[6]- S.I.H.M , Portugal , I , XLII , 5 novembre 1510 , p.256.

[7]- لم يكن الافراني المؤرخ الرسمي للدولة ، ولكنه صاحب أكمل تاريخ عنها .(المترجم).

[8] - الافراني ، النزهة ، ص..10.

بلاد درعة، يقول إنه سيكون له ولولديه شأن فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم فبعثوا إليه وأتى إليهم وكان من أمره ما كان. "[1].

وتوجد الرواية نفسها في دوحة ابن عسكر عند ذكره لسيرة ابن المبارك[2]، ويتابع الافراني حديثه بذكر حكاية مشابهة في موضوع سيدي بركات بن محمد بن أبي بكر التدسي الذي رغب في التفاوض مع البرتغاليين بشأن افتداء الأسرى لكنهم رفضوا، فحاولت القبائل مبايعته لكنه رفض." **إن ابتداء دولة الشرفاء بسوس سببها أن بعض السادات وهو سيدي بركات توسط في فداء بعض الأسارى فأراد أن يكون اتفاقه مع النصارى على أن لا يقبضوا أسيرا فكلمهم في ذلك فقالو له حتى يكون لكم أمير فإن ملككم ذهب واضمحل..فاجتمعوا وأتوه فطلبوه أن يرأسهم فامتنع واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الأمر للدين ودلهم على رجل شريف كان مؤذنا بدرعة فقال لهم إن كان ولا بد فاقصدوا الشريف الفلاني فانه يذكر أن ولديه يملكان المغرب"[3].**

لقد كان ابن المبارك في زاويته بأقا ، يعتبر أحد الشيوخ ذوي النفوذ الديني في بلاد سوس" **وابن المبارك هذا من أكابر الأولياء المشاهير من أهل التصريف بالعيان كان نزيلا ببلاد أق وزاويته هناك شهيرة إلى الآن وكان رحمه الله قطعي الولاية عند أهل السوس وظهرت له كرامات عديدة**" وبالمقابل كانت لسيدي بركات بزاويته بتدسي، بدرعة نفس المكانة.

ويذكر الإفراني هذه الأحداث بعد أن خصص صفحات طويلة ليوضح بأن سلالة السعديين، سلالة شريفة، وليفند كل الاعتراضات التي وجهت لها. وبعد أن قدم صورة عن عمل الوليين الصالحين خلص إلى القول بأن وصول محمد القائم إلى الحكم كان بإشارة من الصالحين والأولياء" **اتفقت كلمة أولئك الأشياخ على أن أبا عبد الله محمد القايم إنما كان نهوضه بإشارة من الصالحين وإذن من العلماء العاملين وكفى ذلك شاهدا على صحة نسبه الشريف عندهم والا لما خصوه بالإمامة العظمى التي لا يتمطق حرمتها إلا شريف النسب قرشي المحتد"[4].**

لقد حرص المؤرخ الرسمي للدولة السعدية على أن يبين شرعية حكم السعديين نظرا لنسبهم الشريف ولأنهم مؤيدون من قبل أهل الدين المتحدثين باسم الأمة.

ويجب التأكيد كذلك على أننا أمام نمطية معروفة: عادة ما يتردد الأولياء أصحاب السلطة في ممارستها ويعينون المرشح المرغوب فيه وهو بدوره يحرص

1- الافراني ، ص..10

2 - ابن عسكر ، الدوحة، ص.113-114.

3- الافراني ، النزهة ، ص.11.

4- الافراني ، م.س، ص.12.

على إحالة سلطته لسلطة الولي الصالح رغم كونها أصبحت أكبر.[1]

وحسب النزهة دائما [2] فإن القائم كان له اتصال بابن المبارك سنة (915-1509-1510) في زاويته بآقا " **قال ابن القاضي إن السلطان أبا عبد الله القايم اجتمع بالشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك بموضع يقال له أق من بلاد السوس الأقصى فتكلم معه ثم رجع إلى قراره من بلاد درعة وذلك عام خمسة عشر وتسعماية".**

وفي السنة الموالية طلب منه فقهاء وشيوخ مصمودة أن يتزعمهم، وبعد أن أذعن لمطالبهم، استقر في تدسي حيث بويع هناك" **وفي العام المقبل بعده وهو عام ستة عشر بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبايل واستدعوه إلى تقديمه عليهم وتسليم الأمر إليه فلبى دعوتهم وأجاب رغبتهم وجاء معهم إلى تدسي قرب تارودانت فبايعه الناس بها وأصبحوا معه بقلوب متفقة وأغراض على الجهاد مجتمعة وموافقة"**

.ثم حصلت له مشاكل بعد ذلك مع أعيان تدسي فاضطر للعودة إلى تاگمادارت حيث بقي هناك إلى حدود سنة (918- 1512-1513) ثم عاد إلى تدسي." **ثم إنه رجع إلى مكانه من تدسي المذكورة فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هناك منافرة أدت إلى ارتحاله عنها ورجوعه إلى درعة فلم يزل بدرعة إلى عام ثمانية عشر فرجع إلى مكانه من تدسي"**

وقد كان الإفراني مقتضبا في حديثه عن هذه المرحلة « **واطمأنت به دارها وأزال الله ما كان أزعجه عنها ثم دعا الناس الى بيعة أكبر ولديه أبي العباس أحمد الأعرج فبايعه الناس"**[3]. ولم توضح هذه الأسباب لكن يبدو واضحا أن الدعم الذي قدم للقائم لم يكن بالإجماع.

ويحكي ليون الإفريقي الذي زار سوس مع الشريف مولاي أحمد سنتي919-1513 و 921- 1515 أن تدسي لم تخضع للشريف إلا في سنة 920- 1514" **وقد دخلت تدسي عام عشرين وتسعمائة في طاعة الشريف الذي اتخذ منها عاصمة له"**[4].

وبعد استقراره، انتقل إلى أفوغال حيث توجد زاوية وضريح الجزولي، وظل هناك إلى أن توفي سنة 923ه. **"وبقي الإمام أبو عبد الله القايم بمكانه من أفغل إلى أن توفي به رحمه الله عام ثلاثة وعشرين وتسعماية"**، ثم نقل أحمد جثمان أبيه ودفنه بإزاء ضريح الشيخ الجزولي في عاصمته الجديدة. وهكذا توضحت العلاقة بين

---

[1]- Brett .M ,Problemes in the interpretation of the History of the Maghrib, *Journal of African History*, 1972, p.499-503.

[2]- الافراني ، النزهة ، ص16.

[3]- ن.م ، ص16.

[4]- الوزان ، م.س.،1، ص95.

الجزولي والسعديين.

إن رواية كل من الافراني وابن عسكر تؤكد بنوع من التشدق على عمل الأولياء، غير أن بعض إخباريي الدولة لا يشيرون إليهم البتة، وهذا حال المؤرخ المجهول والجنابي والزياني، فهم يؤكدون جميعا على الجهاد الذي يسمح لهم بتبرير جباية الضرائب والحصول على الدعم العسكري والمالي من لدن سلاطين فاس. والى حدود احتلال مراكش سنة 1524، أصبح السعديون رسميا قادة الجهاد،"مرابطون" أكثر من راغبين في الحكم. وقد مكنهم هذا الموقف من تجميع القوى والوسائل دون إثارة تخوف الدولة الوطاسية التي يمكن أن تعتبرهم قواد السلطان، لأنهم حصلوا على هذا اللقب منذ 1514.

وتعتبر هذه الرواية، رواية كل من طوريس[1]وليون الإفريقي[2]. أما الزياني فيتحدث بدوره عن تفكك الدولة الوطاسية وحكامها في مراكش وعن حماس محمد بن عبد الرحمان وورعه وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]."**وكان الأب وولداه يعشقان ركوب الخيل والمرابطة في أحواز أكدير**"[4] .

إن مفهوم "رباط" (يعني بالحرف" **وسار يتوجه للرباط**")، ظهر في هذا العمل من خلال مصادر أخرى سبق ذكرها، فهو يعتبر تقديرا مرادفا " للجهاد": "**قضاء بعض الوقت عند حدود بلاد الإسلام والدفاع عنها ضدا على الكفار**"[5].

وحسب ابن مرزوق " يعني الرباط عند الفقهاء أن يهب الفرد نفسه للجهاد وحماية الثغور، ويعني عند المتصوفة عكس ذلك أي أن يهب الإنسان نفسه للعبادة" [6].

ونقصد من وراء ذلك القول بأن كل المصادر المعروفة تقدم محمد بن عبد الرحمان في صورة"مرابط" و"مهدي" متصوف وهو وريث **تقليد جزولي**، وهو أيضا وريث طريقة صوفية دينية تبشيرية بسوس لكنها متمردة وقليلة الانصياع.

ويفيض الزياني في هذا الاتجاه لكنه يورد رواية لا نجدها في أي مصدر آخر، وهي أن محمد بن عبد الرحمان لما رأى ضعف الوطاسيين، أرسل مبعوثين لدى قبائل سوس ودعا الشيخ والأعيان إلى وليمة وبعد الصلاة خطب فيهم باللغة البربرية وقدم

---

[1]- Diego de Torres , op.cit , p.42 , 56..

[2]- الوزان ، ن.م، 1 ،

[3]- Al-Zayyani , op.cit , p.76.

[4] Ibid , p.77.

[5] - La bibliographie sur “Ribat” et “Jihad” est immense(voir article *E.I* et J.Schacht , *An introduction to islamic Law* , Londres , 1964 , p.205-206) mais dans le contexte qui nous intéresse ici voir , R.Peters , *Islam and colonisaion.The Doctrine of Jihad in Modern History* , Paris-La Haye , 1979 ; » The classical doctrine of Jihad » , p.9 et ss et « Definition and purpose , the concept of Ribat « , p.11.

[6] - Apud G.Marçais , Ribat , *E.I* 1, III , p.1152, et du même , “note sur les Ribats en Berbérie , *Mélanges R.Basset* , Paris , 1925 , II , p.395-430.

لهم نصائح وحذرهم وحثهم على الجهاد[1]. ويتحدث المؤلف بلسان محمد بن عبد الرحمان قائلا: " **إن هذا النظام غير قادر على حكم البلاد: فالحقوق مهضومة والطرق مقطوعة، القوي يأكل الضعيف والأنظمة القانونية ليست لها قيمة، فأنتم مسؤولون عن هذه الحالة وعن الفوضى التي تعيشها البلاد بدون قائد. فلن تكونوا من أمة المسلمين إلا إذا اخترتم من يؤمكم. إذن فاخدموا بلدكم مادام أن الله قد خلصكم من هذا الحكم ومن جوره، اختاروا من بين أعيانكم، رجلا يخلص لبلدكم ويحكم بالعدل لفائدة المظلوم على حساب الظالم، ويؤمن مسالككم ويجبي أعشاركم وزكاتكم ويصرفها لصالح بلدكم، فهذه الأموال ستصرف على من سيتعاونون معه والباقي سيصرف على الجهاد**"[2].واتفق ممثلو القبائل على تعيين الشريف نفسه زعيما عليهم وأجابهم بالبربرية: "**إنكم رواد الجهاد، قوموا وقدموا البيعة**"[3]

إن هذه الرواية لها دلالتها، أولا لأنه خطاب با للغة البربرية ولأنه يؤكد على"خدمة البلاد"وعلى تأمين الطرق والتخلص من الجائر، أي الجائر الذي لم يعد هو الحكم لأن الله قد خلصهم منه ومن جوره ثم التأكيد على إسلامهم الصحيح في حالة اختيار زعيمهم وأخيرا الدعوة للجهاد.

وتتفق جل المصادر على أن مسألة الجهاد كانت قائمة آنذاك.لكن جهاد من ؟ إن من خاصيات"المرابط" الدعوة إلى الجهاد، فدينه تحديدا متزمت وجهادي[4] والأكثر من ذلك إذا اتخذ "المرابط" لبوس المهدوية والتبشير Messianisme والخلاص، بما أن المهدي هو من يقود أهم جهاد، أي جهاد الدجال لملئ الدنيا عدلا[5]. لكن عددا من "المرابطين" يدعون للجهاد ضد اليهود والكفار والمرتدين وضد كل من لا يستجيب لتبشير معين. فالجهاد وسيلة المرابط الإيديولوجية وهو وسيلة مرنة، فالجزولي وعمر السياف والمغيلي وآخرون دعوا إلى مختلف أشكال الجهاد ضد "الكفار". وبديهي أن المرابطين عندما **يتمكنون من النصارى** يصبحون هدفا من السهل إيجاد إجماع إيديولوجي حوله، لكن لم يكونوا مستهدفين لوحدهم لان مفهوم الجهاد يتضمن ليس فقط الحرب على الكافر بل أيضا ضرورة إخضاع الطائفة للشريعة. ولربما سنجد هنا الإجابة لأن فكرة الإصلاح " الطهري" تفرض وجود دولة مركزية[6].

أعتقد أنه على الرغم من فقر وقلة النصوص يمكن القول بأن ظهور السعديين

---

[1] - Al-Zayyani , op.cit , p.77.

[2] - Ibid.

[3] - Ibid , p.79.

[4] - M.Brett , Mufti , Murabit , Marabout and Mahdi : four types in the islamic History of North Africa , *R.O.M.M,* 1980, p.5-15.

[5]- حول التداخلات بين مفهومي المهدي والجهاد، انظر ، ر.بيترس، م.س. -

[6]- E.Gellner , *Muslim Society , Cambridge* , 1981 , p.227.

يجد مرجعيته في تقاليد " المرابطين- المهديين" في سوس وأنهم يؤسسون مبرراتهم الإيديولوجية على الجزولية المنبثقة من نفس المرجعية.

سنركز اهتمامنا الآن على البحث عمن هم مريدوهم، ومن هم حلفاؤهم وما هو مدى اتساع رقعة حركتهم.

تذكر النصوص أن المناصرين الأوائل للسعديين أي القبائل التي كانت وراء وصولهم للحكم هم"ايلالن"وجزولة. واعتمادا على مارمول نعلم أن المحاربين المخلصين الذين اعتمد عليهم محمد القائم والذين شكلوا على عهد ابنه محمد الشيخ المهدي، الحرس الخاص للسلطان، والنواة الأساسية لحاميات أهم المدن، هم جزولة (إيلالن جزولة)، لأن الشريف على غرار أبيه " **كان يثق فيهم أكثر من غيرهم**"[1]. وقد أورد روبير مونطاني أن المنطقة الممتدة من المحيط إلى جبل باني (التي تضم سلسلة الأطلس الصغير) كانت مقسمة الى "لفين" منذ زمن، اكزولن وإسكتان وكانا في صراع دائم[2].

وقد حلل دزيوبانسكي Dziubinski بتفصيل تحالفات القبائل البربرية مع السعديين الأوائل في سوس[3]، وخلص إلى أن محمد القائم اعتمد على القبائل المنضوية تحت لف إكزولن (جزولة)، وأن هذه الحركات الأولى تفسر بصراعات وتحالفات المجموعات المنتمية لهذا اللف أو ذاك، وهذا ما يشرح عداوة "هنكيسة" من لف إسكتان الذين حاربوا الشريف إلى حدود سنة (919-1513)[4]. اذ توجد تيدسي مثلا حد اللفين وهو ما يفسر، حسب دزيوبانسكي، استقبالها لمحمد القائم في البداية ورفضها له بعد ذلك، و يلقب القائم حسب المصادر البرتغالية والقشتالية"بأمير سوس وحاحة".

تنتمي حاحة إلى لف إكزولن و كانت أراضيها أول من خضعت لأوامر الشريف. وخلص دزيوبانسكي إلى ما يلي:" يمكن أن نفترض أن مبادرة خلق قوة منظمة لمواجهة البرتغاليين في سوس هي من عمل إكزولن الذين اختار شيوخها تفويض الزعامة لمحمد القائم الذي كان فوق كل تراتبية قبلية نظرا لنسبه ولشرفه"[5].

لكن لمعرفة خصومهم، في البداية، للحصول على سند المرابطين- الجزوليين وبعض القبائل البربرية، يجب مرة أخرى العودة إلى الوراء.

---

[1]- مارمول، ن.م.

[2] - R.Montagne, *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc*, Paris , 1930 , p.201-205.

[3]- A.Dziubinski , Les chorfas sa'diens dans le sous et à Marrakech jusqu'en 1525 , *Africana Bulletin* , *10* , 1969, p.31-51.

[4] - الوزان ،1،ص96، **"حاول الشريف أن يخضع هؤلاء الجبليين (هنكيسة) ويلزمهم النائبة لكنهم رفضوا ذلك بتاتا وحاربوه باستمرار وبقوا منتصرين إلى السنة التي كان المؤلف فيها بهذه البلاد وهي سنة تسع عشر وتسعمائة"**

[5]- Dziubinski , *op.cit* , p.40.

حسب نصوص جزولة " عاش سيدي الغياط في بداية القرن 10/16. وبمعية سيدي بولقنادل من فونتي(أكدير)، حارب أولاد جرار الذين استولوا على سهول أزغار. ونظرا للعلاقة التي ربطت أولاد جرار بالبرتغاليين المقيمين في فونتي ونظرا للتجارة التي تجمعهم، فإن جزولة ثارت ضدهم بدعم من "دغوغ وجان". وقد هزم الدغوغيون وأخلوا "وجان "التي استقر بها أولاد جرار.

ولما اعترف الدغوغيون وجزولة بأول سلطان سعدي، قاموا بطرد أولاد جرار من كل السهول والبرتغاليين من فونتي. وهكذا تمكن الجزوليون من الاستقرار في أزغار"...لأن المرينيين أطلقوا يد أولاد جرار في كل سهل سوس...وبقي هؤلاء يتراجعون إلى أن استنجدت جزولة بالسعديين واستردت كل الأراضي"[1].

وتتطابق هذه الرواية مع اللوحة التي قدمها ليون الإفريقي: تعم الفوضى جنوب الأطلس، والسكان يتعرضون للنهب من قبل قبائل الأعراب التي لا يقاومها أحد، لذلك تجمعوا حول الأولياء الذين وجدت زواياهم في محاور التجارة وفي نقط استراتيجية. وتتطابق هذه الرواية كذلك مع المعلومات التي أوردها الأدب المناقبي المليئ بالحكايات الغريبة حول الأعراب والتي يلعب فيها هؤلاء أدوارا سيئة.

لنأخذ مثلا نموذج أو حالة سيدي محمد ابن المبارك من أقا الذي ساعد الشريف في اعتراف قبائل سوس به.

يقول الإفراني « **وظهرت له كرامات عديدة منها أن نفرا من القبايل قدموا عليه بقصد الإنكار فأمر الشيخ أن يطبخ لهم العصيدة في قفاف من عسف الجريد فجعلت القفاف على النار وأوقد عليها إلى أن طبخ لهم ما أمر به الشيخ والناس ينظرونه جميعا**"[2].

وكان الشيخ قد قرر حظر الحرب وحمل السلاح بعض أيام الأسبوع. وفي رواية النزهة فان عربيا هو من أخل بالهدنة وعوقب من قبل الشيخ[3]." **ومن ذلك أن جعل لهم ثلاثة أيام في كل أسبوع في كل شهر لا يحمل أحد سلاحا ولا يتعرض بعض القبايل فيها لبعض ومن انتهك فيها الحرمة عجلت له العقوبة حتى ذكروا أن أعرابيا قبض في تلك الأيام على يربوع فقال له بعض أصحابه أطلقه فهذا يوم من أيام عافية سيدي محمد بن مبارك فأبي الأعرابي وضرب اليربوع فكسر رجله فما هو إلا أن صاح ويحاه كسرت رجلي فما مشي عليها بعد**".

ولما غدرت قبيلة "معقل المنابهة" الشريف محمد الشيخ، حصل على كرامة من قبل مرابط تصفه النصوص بأنه" **كان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي**

---

[1] - Kably , société , pouvoir et religion ..,op.cit , p.252.

[2]- الافراني، نزهة الحادي، ص.11

[3]- ن.م، ص. 12

عن المنكر" وهو المضغري السابق ذكره.[1]

كان عبد الله كانون من زاويته بأمزميز يحمي الفلاحين من أعراب الضواحي [2]، وقد دخل هذا المرابط أزمور بعد أن تركها البرتغاليون وكان برفقته اثنان آخران هما أبو عبد الله محمد بن ساسي[3] و أبو محمد عبد الله الكوش [4] وكان بمعيته مجموعة من الأفراد يريدون إعمارها ، لكن البرتغاليين ما لبثوا أن عادوا إليها فأخذوهم رهائن، ولم يطلقوا سراحهم بعد ذلك إلا بفدية[5]." **ويقال إن النصارى لما رأوا ما وقع بمن منهم بالسوس من القتل والسبي أخلوا أزمور ورباط أصيلا من غير قتال فسارع جماعة من المسلمين وفيهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن ساسي والشيخ أبو محمد عبد الله الكوش الى ثغر أزمور يحرسونه حتى يجتمع فيه من المسلمين ما يقمع الكفرة ويذود عن بيضة الإسلام مخافة أن يرجع إليه العدو بعد ذلك فكان من قدر الله أن العدو رجعوا إليه فأخذوا جميع من وجدوه هناك من المسلمين وأسروا الشيخين المذكورين إلى أن افتديا بعد ذلك"**

ويحكى عن عبد الله الكوش خليفة الجزولي أنه كان شيخا على الطريقة الجزولية و أحد تلامذة الشيخ عبد الكريم الفلاح.خرج من فاس وحيدا سنة 960-1552، لكن عرب أنكاد نهبوه ." **وبعد سبعة أيام تطهر ولبس ثيابه وركب فرسا له وخرج على باب البلد إلى ناحية المستقى على ثلاثة أيام من فاس ولم يتحرك أحد من أصحابه يمشي معه سوى رجلين حتى وصل المستقى فنزل إلى الأرض وقعد وإذا بجملة فرسان من عرب أنكاد وصلوا إليه وقالوا له : انزع ثيابك وهم لا يعرفونه ، فجرد ثيابه وطرحها ولم يبق إلا السروال فقال أحدهم انزع السروال ، فقال إن الله نهى عن كشف العورة، فطعنه برمح في بطنه كانت منيته منه. ولما حمل مجروحا إلى داره قيل له : لأي شيء ركبت إلى ذلك الموضع ؟ فقال للشهادة التي أمرت بالنهوض إليها"**[6]. إن طلب الشهادة على يد الأعراب كطلب الشهادة في الجهاد، فهل هؤلاء المتجبرون يجب اعتبارهم منتزين يجب جهادهم ؟

من السهل أن نجد من خلال الأحداث التي حملتها مصادر الفترة دلائل عن كفرهم وعدم تدينهم. يقول ليون الإفريقي: "**وأكثر هؤلاء القوم ليسوا بمسلمين ولا**

1- ابن عسكر ، الدوحة ، ص.88

2-.الوزان، وصف افريقيا، 1، ص.99

3- لقد كان ابن ساسي من أصحاب الشيخ الجزولي أبي محمد الغزواني الذي أقام في زاويته على ضفة وادي تانسيفت حيث توفي هناك سنة 961هـ- 1533م. ابن عسكر، الدوحة، ص، 110.

4- ابن عسكر، الدوحة، ص110.، ممتع الأسماع، م.س، ص.101.

5 - D.de Torres, *op.cit*, p.151. ;

الافراني ،م.س، ص. 19.، ممتع الأسماع، م.س ، ص.101

6- ابن عسكر، الدوحة، ص، ص.110-111، ممتع الأسماع، ص.102.

يهود ولا بالأحرى مسيحيين، لا إيمان لهم ولا دين بل ليس لهم حتى ظل الدين"[1].
وفي البرتغال وأثناء محاكم التفتيش المتعلقة بهم، غالبا ما كانوا يوصفون بالجهل وبعدم تطبيق مبادئ الإسلام نظرا لأنهم بدو رحل. هكذا يزعم Christovao Fernandes انه يجهل كل شيء عن الإسلام بسبب نمط عيش أهله[2].
إن المصدرين معا متحيزان، لكن يمكن للفقهاء أن يجدوا بسهولة- إن أرادوا ذلك- حججا و براهين عن قلة دين القبائل البدوية، ولا توجد بين قلة الدين وعدم الإخلاص والهرطقة إلا مسافة قليلة.
ويجب التذكير بأنه لا يجب أن نفهم من كلمة"أعراب" تمييزا لغويا أو إثنيا بل نمط عيش كما يقول ليون الإفريقي" **أناس لا يستقرون في مكان واحد"**[3].
ونجد في نوازل المازوني(المتوفى سنة1478-1479)- والمتعلقة بالجهة الغربية من الجزائر الحالية- فتاوي تدعو إلى جهاد العرب[4]، وهي فتاوى مغرضة وشاذة لأن الفترة كانت تتطلب تكثيف الجهود للوقوف في وجه النصارى الذين كانوا يحاولون احتلال السواحل. وقد كانت هناك باستمرار مواجهات بين رؤساء القبائل البدوية و"المرابطين".
أما معاصره الشيخ الشاذلي أبو عبد الله محمد الزيتوني فقد كان وليا وشيخا للمتصوفة شمال المغرب" **فكان من الأولياء الأبدال وأهل الكرامات التي لا تخطر على بال"** يشرف على تنظيم قوافل الحجيج" **وكان يحمل الأركاب من المغرب لحج بيت الله الحرام وزيارة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكانت عرب أنكاد والزاب وافريقية على جرأتها وتمردها لا تتعرض لركائبه لما رأوا من خرق العوائد التي أجراها الله سبحانه على يديه"** وغالبا ما حمى هذه القوافل من هجومات العرب بفضل كراماته." **وكان رحمه الله شديد القبض ممن تمكن في المقام النوحي، وكانت العرب تحدث أنهم يأتون إلى الركب الذي يكون فيه الشيخ فيجدون عليه سورا لا يقدر أحد على صعوده "**[5].
ويذكر الإفراني حادثة أخرى وقعت للشيخ مع العرب:" **فجاءتنا خيل المفسدين من العرب من كل ناحية لتنهب الركب، فلجأنا إلى الشيخ وأخبرناه بذلك...فأخذ حفنة من التراب ورمى بها يمينا ثم بأخرى يسارا. ثم بأخرى أماما ثم**

---

[1]- الوزان، وصف...1، ص.71.

[2] -A. Bouchareb , *Les conséquences socioculturelles de la conquête ibérique du littoral marocain* …p.510.

[3]- الوزان، ن.م ، 1، ص.51.

[4] - J.Berque , Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XV siècle d'après un manuscrit jurisprudentiel , *A.E.S.C* , 25-2 , 1970 , p.1339- 1341.

[5]- ابن عسكر ، الدوحة ، ص، 71.

بأخرى خلفا، فخرج من ذلك التراب كالسيل من النحل فشردت خيل العرب حتى غابت عن أعيننا، فرأى الناس العجب فلما كان آخر النهار أتى العرب على أرجلهم بالبقر والغنم، وأهلهم وأولادهم بين أيديهم يتبركون بالشيخ ويستعطفونه، وذكروا عظيم الهول من تلك النحل" [1]. إن الأمثلة متعددة بل نجدها حتى عند ابن خلدون الذي يقول:" **وكان شيخهم من أولاد يحيى فيما قرب من عهدنا عامر بن أبي يحيى بن محيا، وكان له فيهم ذكر وشهرة. وكان ينتحل العبادة وحج ولقي بمصر شيخ الصوفية لعصره يوسف الكوراني، وأخذ عنه ولقنه طرق هدايته ورجع إلى قومه وعاهدهم على طريقته ونحلته فاتبعه الكثير منهم، وغزا المفسدون من بادية النضر في جواره، وجاهدهم إلى أن اغتالوه بعض الأيام في الصيد فقتلوه.. "** [2] .

وإذا عدنا إلى نصوص جزولة السابقة الذكر، فإنها تذكر بوجود صراع بين بدو الشبانات وأولاد جرار وجزولة من أجل السيطرة على الأرض ومراقبة الطرق التجارية قبل ظهور السعديين على مسرح الأحداث.

فقبل مجيء الشرفاء حاول بعض "المرابطين" عبثا إدماج هذا الصراع في الجهاد، ومع السعديين سيتغير الوضع، بحيث لم يكتفوا بمحاربة معقل فقط بل حاربوا حتى حلفاءهم البرتغاليين المتواطئين بشكل سافر مع سلاطين فاس[3].

وأعتقد أن التوزيع الجغرافي" للمرابطين"، وخاصة أولئك الذين اشتهروا بمساندتهم للسلطة السعدية الناشئة، لا يدعم نظرية ظهورهم لجهاد الكافر القادم من شبه الجزيرة الايبيرية. وأعتقد كذلك أن هناك إشارات حول مواجهة " المرابطين" للقبائل البدوية التي لا يمكن تجاهلها. لنعد الآن للأحداث التي طبعت وصول السعديين إلى الحكم.

خلال سنة (915- 1509-1510)، كان لمحمد القائم اتصال في أقا بالمرابط الجزولي، ابن المبارك. فهذه المدينة نقطة حساسة على طريق القوافل إلى السودان. فالمجال المجاور لها في هذه الفترة كان مراقبا من قبل عرب الرحامنة، إحدى قبائل معقل. ويصف ليون الإفريقي هذا المكان بأنه بوتقة الصراعات المدنية وفيه لعب أحد

---

[1] - ن.م.ص.72.

[2] ـ ابن خلدون ، كتاب العبرو ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق أ.خليل شحادة 1، دار الفكرللطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، 1981، الجزء ، 6، ص.35.

[3]- إن تواطؤ المرينيين والوطاسيين وتعاونهم مع القبائل العربية أمور معروفة، انظر مثلا الروابط (حتى العائلية) بين ذوي منصور وملوك فاس " **"واعتاد ملوك فاس ان يتخذوا كلهم تقريبا زوجاتهم من بنات هؤلاء الأعراب ويربطوا معهم وشائج القربى"** الوزان، 1، ص45) أو مع قبيلة حسين التي يمتد مجالها من فاس إلى سجلماسة بل والى درعة (الوزان،1، ص46)

شيوخ الزوايا دور الوساطة وأصبح فيما بعد " **سيد أقا**"[1].

وفي سنة 915- 1510-1511، التقى محمد القائم في تيدسي بممثلي القبائل الجزولية ، وتعتبر تيدسي من بين المحطات الهامة في التجارة مع السودان لوجودها في مجال انتشار زراعة قصب السكر" **وهذه البلاد منتجة خصبة، تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة وفيها أناس يتجرون مع بلاد السودان**"[2]. وحسب الإخباريين العرب فقد ظهر الشريف بتيدسي يدعي الحق في الحكم بتأييد سيدي بركات التدسي المرابط الجزولي[3].

ولا يمكن لنا أن نؤكد بوضوح هل في هذا الوقت بالذات عين ابنه أحمد وليا للعهد، كما لا يمكن أن نبين أيضا متى تزوج بنت سيدي بركات[4]، إذ لم يحصل محمد القائم على دعم كاف للبقاء في تيدسي و هو ما اضطره إلى العودة لتاگمادارت حيث بقي هناك حتى سنة 918-1512-1513، وفيها عاد إلى تيدسي.

وكانت هذه المدينة حسب مارمول[5]، تؤدي إتاوات ثقيلة للعرب" **ودخلت تيدسي عام 920 في طاعة الشريف الذي اتخذها عاصمة له**"[6].

وقد أقام ليون الإفريقي ثلاثة عشر يوما في تاكاوست (التي كانت تحت سلطة احد أتباع الشريف) سنة 1513" **وأقمت بهذه المدينة ثلاثة عشر يوما مع نائب الشريف لشراء إماء سود يقمن بخدمة هذا الأمير وذلك عام 919 ه**"[7]. ومنذ السنوات الأولى، أصبحت تارودانت وتيوت تحت حكم الشريف واتخذ تارودانت عاصمة له" **بينما يحتل الأعراب السهول الجنوبية ويرعون فيها ماشيتهم، ويؤدي سكان تارودانت لهؤلاء الأعراب خراجا كثيرا عن الأراضي الزراعية حسب العادة وكحقوق لأراضيهم ولقيامهم كذلك بتأمين الطرق. وقد ثارت تارودانت في أيامنا هذه ضد الأعراب ودخلت في طاعة الشريف(السعدي) عام 920 ه** "[8].

أما تيوت[9] حسب مارمول وليون،" **فينبت فيها أيضا قصب السكر بكثرة .. ويقصد تيوت عدد كثير من تجار فاس ومراكش و بلاد النيجر لشراء السكر. لكن القسم الغربي منها غير مسكون لأنه عبارة عن سهل بيد العرب**"[10]. وحسب

---

[1] - مارمول ، افريقيا ، الجزء 3 ، ص.143.

[2]- ليون الافريقي 1، ص.95.

[3]- الافراني ، ن.م ، ص، 11

[4] - *S.I.H.M*, , Portugal , II , p.336.

[5] - مارمول،ن.م، الجزء 3 ،

[6]- الوزان، ن.م ، ص..95.

[7]- ن.م ، 1 ، ص96.

[8]-ن.م، 1، ص..94.

[9]- ن.م، 1، ص..91.

[10]- ن.م ، 1 ، ص..92

المصادر العربية، لقي الشريف في تييوت مساندة من سيدي لحسن التملي التيوتي مؤدب ولديه[1].

توطدت الروابط مع هذه البلدة لاحقا، وأصبح خليفة الحسن التملي في مهمة التدريس هو أبو بكر بن أحمد التازولتي التملي الذي سيصبح فيما بعد خطيب محمد الشيخ.

وفي غشت من سنة 1511، حدث أول هجوم للشرفاء على سانتا كروز واستمر حصارها عدة أيام، وحسب ليون، فان قبائل سوس لم تساهم في هذه الحملة سوى بخمسمائة فارس، قتل أغلبهم في عين المكان، غير أنه لما ترك ليون الشريف عام 1514، كان في حوزته ثلاثة آلاف فارس عدا المشاة والعدة والذخيرة." **ولما غادرت بلاط الشريف كان عنده أكثر من ثلاثة آلاف فارس وعدد لا يحصى من المشاة وكميات هائلة من الذخيرة الحربية"[2].**

ولما أخضع الشريف قبائل حاحا، عبر جبال الأطلس مع نهاية صيف 1513 ولم يعتمد هنا على تحالف القبائل فقط بل اعتمد أيضا على مرابطي ركراكة [3] وباتصال وثيق مع الجزوليين الذين كانوا يقودون الجهاد في آسفي ضد البرتغال منذ سنة 1510. وقد كان أول اتصال للشريف مع البرتغاليين، شمال الأطلس في أكتوبر 1513، في سهل مطرازة الذي لا يبعد كثيرا عن أفوغال[4]. وعند اجتيازه الأطلس، دخل في مواجهة مع زعامات محلية تتصارع من أجل الحكم: يحيى بن تعفوفت زعيم القبائل العربية حليفة البرتغاليين[5] وأمير هنتاتة مراكش[6].

ففي سنة1514، احتل الشريف مدن تفتنة وأمگور[7] التي استعادها البرتغاليون في أبريل 1515[8] ثم احتل تدنست[1]. ولما أحس أمير هنتاتة بأنه مهدد بهذا التفوق

---

[1] - الحسن بن عثمان التملي، فهرس المنجور ، ص.51، ابن القاضي، درة الحجال ، 1 ، 240-358 ، جذوة الاقتباس ، 1، 182-143 ، المنتقى ، 1، ص.289، الافراني، النزهة، م.س، ص.65-68...

[2]- الوزان ، ن.م ، ص94

[3]- Sur la tribu maraboutique des Regraga , voir , E.Doutté , *En Tribu* , Paris , 1914 , p.367 et ss .Selon la chronique de santa cruz du cap de Gue , trad.et annoté par P.de Cenival , Paris , 1934 , p.24-25., le chérif avait 3000 cavaliers .

[4] - Damioo de Gois , apud , R.Ricard , *les Portugais au Maroc de 1495 à 1521 selon D.de Gois* , Rabat , 1937 , III , p.35. ; SIHM, Portugal, I , p.126-127 et 445.

[5]- حول يحيى بن تعفوفت انظر أحسن دراسة للباحث دافيد لوبيش في :
Textos em aljamia portuguesa , Lisboa , 1940.

[6]- Cenival , P.de, Les Emirs de Hintata , rois de Marrakech , *Hesperis* , XXIV , 1937 , p.245-257.

[7] - D.de Torres, op.cit , p.72. ; S.I.H.M, Portugal, I , p.613

[8] S.I.H.M , Portugal , I , p.684 et n.2

السعدي، دخل في مفاوضات مع البرتغاليين سنة 1514 ليدخل تحت حمايتهم[2]. وفي نفس الوقت تقريبا اندهش البرتغاليون من ثقة حلفائهم في الشريف[3]. وحسب وثيقة قشتالية فان" **الموريين يرون في الشريف النبي محمد"ص" المبعوث من جديد**"[4].
وفي فبراير 1514، هزم الشريف قرب تدنست على يد Nuno Fernandes de Ataide حاكم آسفي وحليفه يحيى بن تعفوفت[5]. والتجأ الشريف مع ولديه الى ألگل (أو أگلگل) عند الدمسيريين[6].

ويشير مارمول وليون إلى مجموعة من مدن سوس ودرعة وحاحا التي تحالفت مع الشريف ما بين 1514 و 1516.

لنبدأ بتلك التي سبق ذكرها:

- تفتنة [7] ، وهي مرسى في حاحة، يقع شمال سانتا كروز عند مصب واد اگزولن وهو الممر الوحيد نحو البحر وبالتالي فهو مركز تجاري هام .
- تدنست : مدينة أكثر أهمية من تفتنة، تضم جالية يهودية كانت تستورد الثوب من البرتغال وتضرب النقود الفضية. **"وخربت تدنست عام ثمانية عشر وتسعمائة(1512-1513) وفر سكانها بعضهم الى الجبال وبعضهم الى مراكش، لأن جيرانهم من الأعراب تواطئوا مع قائد (جيش) ملك البرتغال المقيم في آسفي وكان هؤلاء الأعراب يريدون تسليم المدينة للنصارى، فاتفق السكان جميعهم وغادروها. وقد شاهد كاتب هذه السطور مدينة تدنست بعد خرابها وقد تهدم السور كله وكذلك المنازل ولم يعد يسكنها غير البوم والغربان وذلك عام 920 "**[8]. **وأضحت تدنست منذ أربعين سنة مشهورة جدا بفضل الشرفاء لأنها إحدى المدن الأولى التي نصرتهم"**[9].
- " ألگيل" " **التي كانت في ملك الشريف وقد أخلاها السكان خوفا من العرب وعمرها الشرفاء وأقاموا حامية بها"**[10]
- تكوليت: عمرها الشرفاء من جديد وردوا اليها السكان الذين كانوا هربو إلى الجبال

---

[1] - D.de Torres, p.68-69.
[2] - S.I.H.M., Portugal, I , docs.CXII et CXIII.
[3]- S.I.H.M , Portugal , I , p.565.
[4]- S.I.H.M , I , Espagne , p.152.
[5] Gois , op.cit , III , p.49.
[6]- Chronique de Santa cruz , p.13 et n.1 ; S.I.H.M , Portugal , I , p.756, 765.
[7]- تفتنة ، الوزان ،ن.م، 1، ص.86.
[8]- الوزان ، 1 ، ص.78.
[9] - مارمول ، افريقيا، الجزء 3،ترجمة محمد حجي وآخرون،الجمعية المغربية للترجمة والتأليف والنشر، 1984،ص.9. الوزان،ن.م، الطبعة 2، دار الغرب الاسلامي،1983، ص.99-100..
[10]- مارمول،ن.م، الجزء 2 ،ص.12.

وقوما آخرين من شتى الأماكن[1] ويقال الشيء ذاته عن أديكيس في حاحا [2].
- تسگدلت: وتقع على جبل عال، وعر المسالك، وقد قاومت العرب ببسالة وخضع سكانها منذ البداية للشريف الذي اهتم بها بسبب حصانتها ونظرا لقيمتهم"[3]. وشجعوا منذ البداية استقرار الشريف ب **آيت داوود**[4] و **ايغيلينغيغيل**" التي كانت في حرب دائمة مع العرب" [5].

"أما بخصوص " تاكتسة" تقع على قمة جبل وعر المسالك، يبعد هذا الحصن عن تسكدلت بخمسة فراسخ في اتجاه الجنوب، وسكان هذه المدينة كلهم قوم محاربون أشداء يقيمون في حصن منيع، ليس لهم خيول لأنهم لا يحتاجون إليها. وكان الشريف يقول إنهم أذاقوه الأمرين أكثر من سائر سكان البلاد، لأنهم كانوا إذ ذاك أحرارا يفرضون الإتاوة على الأعراب المارين من هناك، أو يسلبونهم."[6]. لم تكن هذه المدينة لتعول على دعم الشرفاء لأنها كانت قادرة على حماية نفسها من هجمات العرب، ويمكن تعميم المسالة والقول بأن الأماكن " المعاقبة" من قبل العرب أو تحت سيطرتهم، هي الأولى التي خضعت للشريف.

ويؤكد " طوريس" أن **الشريف استولى على السلطة بسبب ما كان يقوم به الأعراب والبرابرة المسلمون من شرور ونهب وأسر في حق أبناء ملتهم، وهو ما ساعد النصارى على الاستيلاء على بلاد البربر"**[7]. وتأسف المصادر البرتغالية لعمليات النهب والسلب التي قد يقوم بها الشريف في حق أراضي العرب حلفاء البرتغاليين لأنه " **عدو العرب ويسلب أراضيهم ويعطيها للزناتيين**"[8] بمعنى أنه يجندهم في جيشه.

ويشير كل من مارمول وليون إلى التأثير السلبي للقبائل العربية المستعدة لنهب كل ما ينتجه الفلاحون خاصة في منطقة مراكش" **لكن الأعراب يثقلون كاهل المدينة بالإتاوات وكذلك يفعل بها أمير مراكش حتى إن معظم البادية غدا غير مأهول وأخذ السكان يغادرون المدينة وقد فقدوا أموالهم، ولو أنهم يملكون كثيرا من الأراضي والحبوب"**[9] ويؤكدان كذلك على مآسي منطقة أمزميز الغنية والتي استنزف سكانها من قبل الأعراب ومن قبل قواد مراكش.

---

[1]- مارمول ، ن.م، الجزء 2 ، ص، 15،الوزان، م.س، 1، ص.79..
[2]- مارمول ،ن.م، الجزء 2 ، ، الوزان، ن.م، الطبعة 2، ص.101.
[3] - الوزان،1، ص.82..،
[4] - مارمول ، ن.م ، الجزء 2، ص19، ليون الافريقي ، ص.83.
[5]- مارمول ،ن..م، الجزء 2 ، ص21، ليون الافريقي ، ص.86.
[6]- مارمول ، ن.م، الجزء 2 ، ص. 19، الوزان، الطبعة 2، ص.105.
[7] - Diego de Torres , p.42.
[8] -S.I.H.M , Espagne , I , p.268.
[9]- الوزان ، م.س ، ص.99.

فالمراكز المتضررة هي " تينيزا" حيث يحصل العرب على ثلث المحصول [1]، وتومگلاست [2] وتشرافت[3] :

- تومكلاست [4]، وتدفع الخراج للأعراب وللبرتغاليين ولملوك فاس، واضطر سكانها للتخلي عنها، أما الآن وقد عادت للشريف فقد عمرت من جديد. ويبقى النموذج الأكثر تمثيلية هو نموذج أمزميز الموجودة عند حدود الأطلس ومجال جزولة والتي تؤدي الإتاوات للأعراب ولقائد مراكش ورغم ذلك لا يدعونها تجمع محصولها في أمن.

وأشار بول باسكون في دراسته حول حوز مراكش [5] إلى أن أهم الزوايا التي كانت ما تزال في ضواحي مراكش في بداية هذا القرن، قد نشأت مع قدوم عرب بني معقل إلى المنطقة. وليس هناك من شك في أن الشرفاء قد استفادوا من هذه الظرفية. فحوالي 1515، لما قاد حاكم آسفي، فرناندش دو أطايد N.Fernandes de Ataide ، حملته التي وصلت عند حدود أسوار المدينة، كان الشرفاء موجودين في مراكش[6].

إن الوثائق البرتغالية تكمل ما جاء عند مارمول وليون وتبين بأن حرب الشرفاء كانت من أجل مراقبة السعديين لماسة، وماسة مركز تجاري مهم حافظ فيه البرتغاليون على محطة تجارية منذ نهاية القرن 15 لكنه أصبح تحت سلطة الشريف منذ 1516.[7]، و " تركوكو" [8]، هذا المركز عبارة عن مرسى صغير على بعد 20 كلم شمال سانتا كروز، يهرع إليه التجار الجنويون والقشتاليون، وقد تعرض لعدة هجومات من قبل البرتغاليين[9].

وتتحدث الوثائق عن الشكاوي المقدمة ضد التجار القشتاليين وخاصة تجار قادس، وضد الجنويين الذين يفضلون المتاجرة مع الشريف بدل البرتغاليين نظرا للظروف الملائمة التي يهيئها لهم[10].

لا تؤكد هذه الوثائق على رغبة الشريف في السيطرة على المراكز التجارية فقط، بل تؤكد أيضا على الرغبة في الاستيلاء على مصدر هذه المنتجات وخاصة مناجم النحاس[11]، وهكذا احتلت مدينة" تول"سنة1517 حيث توجد مناجم هذا المعدن

---

[1]- ن.م ، 1 ، ص..98.

[2]- ن.م ، 1 ، ص..99.

[3]- ن.م ، 1 ، ص..100.

[4]- كتبت تحت اسم تمديكست في النص الفرنسي حسب المترجم ،مارمول ،الجزء، 2 ص.46.

[5] - P.Pascon , *Le Haouz de Marrakech* , Rabat , 1977 , I , p.261.

[6] - Diego de Torres, p.58 etss ; S.I.H.M , Portugal , I , p.687-692 et 480.

[7] - S.I.H.M , Portugal , II , p.28.

[8] - Gois , II , p.21.

[9] - S.I.H.M , Portugal , I , p.561 et ss.

[10] - Chronique de santa cruz , p.34-37 ; S.I.H.M , Portugal , II , p.28, 129.

[11] -S.I.H.M , II , p.28.

1
.

وفي سنة 1517، ضعف حجم البضائع التي كانت تصل إلى سانتا كروز بصورة مهولة لأن " **الشريف يتحكم في كل المنافذ والطرق**"[2]. وقد تكررت الشكايات سنة بعد أخرى كلما ازدادت الوضعية خطورة أي كلما تمكن الشريف من مراقبة الطرق والمراكز التجارية في سوس ودرعة. " **يتحكم في كل الطرق ولا يترك قافلة تمر، ومن كانت تتجه صوب سانتا كروز أصبحت تذهب الى تركوكو**"[3]. إذن فالشريف يراقب كل الذهب والنحاس[4]، وهكذا نفذ برنامجه الهادف إلى "تحرير الطرق" ومراقبة النشاط التجاري.

وقد عمل ابنه محمد الشيخ على متابعة المهمة بطرد عرب معقل نهائيا إلى تافيلالت ودرعة.ويذكر مارمول مجموعة من الحاميات التي أقامها في "تيست" وسهر على هذه الحاميات من أجل السهر على حماية السكان من هجمات الأعراب الذين كانوا في السابق يفرضون عليهم إتاوة هامة"[5]، و في بني صبيح[6] وكيتصوة [7] و تبرنوست[8] وترغالة[9]، أهم مدن درعة التي ساعدت الشرفاء حسب مارمول في غزواتهم.

وقد كانت لمحمد الشيخ بها حوالي ألف وأربعمائة فارس وخمسمائة رام أنيطت بهم مهمة حراسة القوافل التي تنقل التبر من تغازة إلى ترغالة حيث يصهر ويوضع عليه الطابع ومن ثم يرسل إلى مراكش عبر كيتصوة".

ورغم تأخر هذه المعلومات زمنيا، فإنها تعاصر الفترة التي كان فيها محمد الشيخ " سلطان سوس" أي بعد احتلال مراكش سنة 1524 واعتلاء العرش من قبل الأخ الأكبر احمد الأعرج واتخاذها عاصمة ملكه.

إن اهتمام محمد الشيخ بالتجارة مع السودان دفعه إلى السيطرة على مناجم الملح في " تغازة " والتهيئ لحملة إلى "ودان"سنة 1543[10]..

---

[1] - Gois , II , p.21.
[2] - S.I.H.M , Portugal , II , p.93.
[3] - S.I.H.M , Portugal , II , p.184.
[4] - S.I.H.M , Portugal , II , p.129.

[5] - مارمول ، ن.م، الجزء 3، ص.، 141.
[6]- مارمول ،ن.م ، ص.147..
[7]- ن.م .ص.148
[8] - ن.م، ص، 151.
[9]- ن.م ، ص، 149.
[10]- L.Mougin , Les premiers sultans sa'dides et le sahara , *R.O.M.M* , 19 , 1975 , p.169-187.

واحتل سانتا كروز[1] سنة 1541 والتي لم تكن قد تعرضت لهجومات منذ سنة 1513. إن تطور زراعة قصب السكر في المنطقة المجاورة للمدينة (بضواحي تدسي وتارودانت) والتي طالما أرادها محمد الشيخ، لأن السكر كان يتم تصديره نحو أوروبا، وكان التصدير يتطلب مع التجارة الصحراوية، وجود مرسى قريب ومهم لترويج المنتجات[2] . إلا أن هذا الأمر يتجاوز حدود هذه الدراسة.

توفي مولاي محمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله في أفوغال سنة923-1517، ودفن قرب ضريح الجزولي،" **ولما توفي السلطان أبو عبد الله بالمحل المذكور من بلاد حاحة دفن هناك بإزاء ضريح الولي الصالح والقطب الواضح شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة أبي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي وذلك قبل أن ينتقل إلى مراكش**" أما ابنه الأكبر أحمد الأعرج الذي عينه وليا للعهد منذ البداية فقد بويع عند وفاة أبيه[3]. وفي سنة 1518، توفي يحيى بن تعفوفت واختفى معه أهم خصوم السعديين. وفي 1524، اغتال الأخوان أمير هنتاتة واستوليا على المدينة واتخذاها عاصمة.

لقد كان أول عمل أقدم عليه السلطان الجديد هو نقل جثمان الجزولي وجثمان أبيه، وفي هذا الوقت بدأت المواجهة مع السلاطين الوطاسيين من أجل ضم مملكة فاس.

وفي شمال تانسيفت، أضاع الشرفاء تأثيرهم المستمد من المصالح المادية التي دافعوا عنها دوما كما أضاعوا إيديولوجيتهم التي لم تجد لها مكانا بفاس بل إنها لقيت معارضة شديدة في بعض المناطق بما فيها مدينة فاس، ولذلك كان عليهم انتظار 30 سنة لإخضاع شمال المغرب.

خاتمة:

لا يمكن للجغرافيا ولا للكرونولوجيا ولا للزوايا ولا للجهات الأولى التي بايعت السعديين أن تعضد نظرية المقاومة"الوطنية" للبرتغاليين كقاعدة مذهبية للحركة.

فمنذ البداية اندمج الشرفاء في تقاليد المهدوية في سوس، فأول الأمراء المؤسسين للدولة ظهر كمرابط من أتباع الجزولية واستعمل لفائدته أعمدة تعاليمها وهي : الشرف و المهدوية والجهاد واعتمد على دعم أهم " مرابطي الجزولية" الذين سبقوه في قيادة القبائل البربرية المستقرة في صراعها من أجل إخضاع القبائل البدوية

---

[1] - D.de.Torres , p.109 et ss ; Chronique de santa cruz , p.100etss.

[2] - Diego de Torres, p.66, 110-113 ; P.Berthier, *Les anciennes sucreries du Maroc et leur système hydraulique*, Rabat, 1966.

[3]- الافراني ، النزهة ، ص..18-

واسترجاع الأراضي الزراعية وضمان مراقبة الطرق التجارية.

أما العرب فقد اعتمدوا على الدعم التقليدي لسلاطين فاس، فهم الحليف الأساسي للبرتغاليين في السواحل. فهو إذن جهاد ضد العرب وحلفائهم وكفاح ضد النظام القائم.

إن نجاح السعديين في البداية يعود لقدرتهم على استغلال وضعية مذهبية موجودة لفائدتهم، تبشير ووعظ متجذر وصراع يجمع بين"المرابطين" على رأس القبائل البربرية ضد رؤساء البدو وبالتالي ففعاليتهم في توحيد هذه القبائل في صراعها ضد العرب وفي استرجاع الأراضي وفي إعادة إعمار القرى المهجورة وفي مراقبة المسالك التجارية، تدعم وصولهم للحكم. لكن لن يستفيدوا من المصالح المادية لأتباعهم الأوائل ولا من المذهبية التي اعتمدوها (خاصة المهدوية) عندما سيجتازون حدود المناطق الشمالية للبلاد.

ففي الشمال الذي أخضع بحد السيف، لن يتكيف المذهب مع الوضعية الجديدة إلا في حالة النجاح في التركيز على الشرف (الشرف الذي لم تصبه العدوى السياسية المتمثلة في تحالف الحكم الوطاسي-المريني) وعلى الجهاد ضد النصارى كوسيلة لتوسيع الإجماع و التركيز على صورتهم كمرابطين جدد، إلا أنه منذ الاستيلاء على فاس لن يصبح " المرابطون الجزوليون" حلفاءهم التقليديين.

لكن مجيئ دولة السعديين أظهر القواعد التي بنت عليها ركائز الحكم عملها في الأساس، وللاستحواذ على السلطة العليا، حمل روبير مونطاني[1] الوزر كله إلى اللف و أمغار كما رأينا مع دزوبانسكي عندما فعل الأمر ذاته مع السعديين. وعلى العكس من ذلك جعل Gellner النفوذ الروحي المحلي للزوايا سبيلا وحيدا وقارا للوصول الى السلطة[2] .

ويأتي النموذج السعدي ليوضح الانتقاد الذي وجهه عبد الله حمودي[3] لنظرياتهم التأويلية. فعند قيام الدولة السعدية، اجتمع النسب والزاوية معا، ففرض النسب هيبته بقوة السلاح على مجموعة إثنية معينة ومثله فعلت الزاوية بتأثيرها الكاريزماتي، وبوصولهما معا إلى وضع مؤثر راكما ما للسلطة من وسائل فعبآ الناس واستعملا القوة[4]. إن الظهور المفاجئ للسعديين هو أيضا مثال عادي جدا للطريقة التي تغذي بها الزاوية، كمؤسسة كاريزمية، مؤسسة الدولة.

لذا كان على كل حكم ممارسة مراقبة يقظة خاصة تجاه الأضرحة والأولياء،

---

[1] - R.Montagne, *Les Berbères et le Makhzen dans le sous du Maroc*, Paris, 1930.

[2] - E.Gellner , *Saints of the Atlas* , Londres , 1969 , p.64-69.

[3]- A.Hammoudi , Segmentarité , stratification sociale , pouvoir et sainteté , *Hesperis – Tamuda* , *XVI*(1974 , reéllement 1977) p.147-180.

[4] - W.Coon , Warfare and state building in Early modern Morocco 1497-1517, *JUSUR* , 4 , 1988 , p.1-30.

فالسعديون كانوا يعلمون جيدا أن التحالف معهم أمر حيوي في البداية لكنه أيضا غير مأمون العواقب.

وهكذا فبعد سنتين من احتلال فاس ، وحسب رواية الناصري، " **أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامة منهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشارتهم، والتعبد بما يتأولونه من عباراتهم، ألا ترى أن بيعة والدي أبي عبد الله القائم لم تنعقد إلا بهم ، ولا ولج بيت الملك إلا من بابهم**"[1].

[1]- الناصري، الاستقصاء،البيضاء، 1955،5، ص.26، انظر كذلك نزهة الحادي ، ص . 90-91.